الفصـــل الأول

العلمانية من النشأة إلى الدكتور محمد أركون والدكتور نصر حامد أبو زيد

تمهيد:

قبل أن تظهر العلمانية كحركة فكرية وعملية، مهد لظهورها أسباب كانت هي الباعث على بلورتها، لذا آثرت قبل أن أتحدث عن تعريف العلمانية كمصطلح، التحدث عن ظروف نشأتها في الغرب، ثم عن انتقالها إلى الشرق، وأرى أن هذا التمهيد مهم؛ لأنّ العلمانية حركة حدثت في سياق تاريخي معين، فهي لا تفهم إلا في هذا السياق، الذي هو المعين على فهمها، وفهم توجهات مفكريها.

المبحث الأول

العلمانية في الغرب والشرق

المطلب الأول: العلمانية في الغرب

أولاً: أسباب ظهور العلمانية

يرجع بعض الباحثين أسباب ظهور العلمانية في الغرب إلى طبيعة الإنسان الغربي؛ الذي يريد التخلص من أي سلطة علويّة، ورغبته الدفينة في إبعادها أو تزييفها، وإنزالها عن عرشها.[1]

فالمتتبع للفن اليوناني المختلط بالأساطير والعقائد اليونانية، سرعان ما تتبدى أمام عينيه هذه النظرة العلمانية بوضوح وجلاء، إذ أنّ ملحمتي[2] الشاعر اليوناني القديم (هوميروس)[3] الإلياذة والأوديسة، تظهران ما تنطوي عليه هذه النفس الغربية من صراع أصيل وعميق بين الإنسان والآلهة، فما الأوديسة إلا صراع طويل ومرير بين البطل أوديسيوس (وهو الإنسان)، والإله نبتون (إله البحر)، هذا الصراع الذي ينهيه صاحب الأسطورة بهزيمة الإله وانتصار الإنسان.[4]

وفي الإلياذة يجرح ديوميدس الرب آريس بمساعدة أثينا، ولكن يعقوب يهزم ربه دون عون أو مساعدة.

---

(1) العلمانية الأثر والنشأة في الشرق والغرب، زكريا فايد، ص71، الزهراء للإعلام العربي، الأولى 1988م.

(2) تشير كلمة ملحمة إلى: القصيدة القصصية الطويلة التي تسجل الأعمال البطولية الخارقة التي صدرت عن بعض الأبطال الحقيقيين أو الأسطوريين والتي تمتزج فيها أفعال البشر وتصرفات بعض الكائنات الإعجازية الخفية كالآلهة والمردة والشياطين والوحوش المخيفة (انظر: الفكر الإغريقي، محمد الخطيب، ص 237 دار علاء الدين دمشق، الأولى 1999م).

(3) هوميروس شاعر يوناني لا يعرف عنه سوى أنّه كان ضريرًا ويقال أنّه عاش في القرن الثامن أو العاشر ق.م، ويقال أنّه شخصية وهميّة لم يكن لها وجود. (انظر الفكر الإغريقي، محمد الخطيب ص 246).

(4) المصدر السابق، ص 69.

ويتقدم الزمن بالإنسان الغربي ليصل إلى العصور الوسطى[1]، وتتقدم معه نظرة الصراع هذه؛ والتي تتمثل في استسلام هذا الإنسان للآلهة أو بالتحديد لرجال الدين.

واستمرت نظرة الصراع هذه في العصور الحديثة، حيث نجد (ألبير كامي)[2] في أسطورته (سيزيف) يبين عبث الإله بالإنسان وتعذيبه، وتمرد هذا الإنسان وسخطه على كل قوى فوقيّة.[3]

وأرى أنّ هذه الصورة التي صوّر بها هذا الباحث الإنسان الغربي، صورة غير صحيحة؛ ذلك أنّ كل شعوب الأرض فيها مثل هذا التمرد، بدليل أنّ الأساطير موجودة في التراث الشعبي لكل الشعوب.

وقد حصر العلماء أسباب ظهور العلمانيّة في تاريخ أوربا في أسباب خارجة عن الذات الإنسانيّة، وهي التي أظهرت العلمانيّة في سياق التاريخ.

وهذه الإسباب هي:

1- طغيان الكنيسة:

فقد أجمع المؤرخون على أنّ العلمانية ظهرت كرد فعل للممارسات الكنسية العنيفة؛ فقد طغت الكنيسة في المجالات الآتية:

أ- الطغيان الديني:

فمنذ (أن ظهر إلى الوجود ما يسمى المسيحيّة الرسميّة في مجمع نيقية سنة 325م، والكنيسة تمارس الطغيان الديني، والإرهاب في أبشع صوره، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة التثليث قهرًا، وحرمت ولعنت مخالفيها، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين،

---

(1) تبدأ فترة العصور الوسطى من نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي حتى قيام الدول الملكية وبداية الإكتشافات الجغرافية الأوروبية وعودة النزعة الإنسانية وحركة الإصلاح الديني البروتستانت بداية من سنة 1571م.

(2) مؤلف وفيلسوف وجودي فرنسي ولد في 7 نوفمبر 1913م بمدينة الذرعان بالجزائر وتوفي 4 يناير 1960م.

(3) المصدر السابق، ص70.

وأذاقتهم صنوف التعذيب، وألوان النكال، ونَصَبْت نفسها عن طريق المجامع المقدسة (إلها) يحل ويحرم، ينسخ ويضيف، وليس لأحد حق الاعتراض، أو على الأقل حق إبداء الرأي، كائنًا من كان، وإلا فالحرمان مصيره، واللعنة عقوبته لأنّه كافر مهرطق[1]. [2]

ولقد (عززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران، وحق الحرمان، وحق التّحلة، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها، فحق الغفران أدَّى إلى "صكوك الغفران"[3]، وحق الحرمان عقوبة معنويّة بالغة كانت شبحًا مخيفًا للأفراد والشعوب في آن واحد، فأما الذين تعرضوا له من الأفراد فلا حصر لهم، منهم الملوك أمثال "فردريك"[4] وهنري الرابع الألماني، وهنري الثاني الإنجليزي، ورجال الدين المخالفين من آريوس[5] حتى لوثر[6]، والعلماء والباحثون المخالفون لآراء الكنيسة من "برونو" إلى "أرنست رينان" وأضرابه.

---

(1) الهرطقة: هي الزندقة وتطلق الهرطقة على كل من بدل في عقيدة مستقرة بأن أضاف فيها أو أنقص منها.

(2) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د. سفر الحوالي ص128، دار الهجرة، الأولى 1982م.

(3) هي صكوك يوزعها البابا على أتباعه، ليبيعوها للناس، كالذين يبيعون أسهم الشركات، أو أوراق اليانصيب، وبالصك فراغ ترك ليكتب به اسم الذي سيغفر له ذنبه، والعجيب أنّ هذا الصك يغفر لمشتريه ما تقدم من الذنوب وما تأخر. (المسيحية، د. أحمد شلبي، ص255، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، العاشرة 1998م).

(4) فريدريك الثاني (1194-1250م) ملك صقلية وهو من قاد الحرب الصليبية السادسة (1194-1250) ووصف بأنّه كان مستنيرًا ودخل في مفاوضات مع الملك الكامل وبسببها وصفه الكتاب المسيحيون بأنّه عدو للمسيحية وقد حرمته البابوية. (انظر: العرب في صقلية، د. إحسان عباس، ص 319، دار الثقافة بيروت، الأولى 1975م).

(5) كان أريوس قسيسًا بالإسكندريّة، ومن قوله التوحيد المجرد، وأنّ عيسى عبد مخلوق، وأنّه كلمة الله التي بها خلق السماوات والأرض وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية. (الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، ج1 ص109، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت)، وقد نفته الكنيسة ومات في منفاه.

(6) ولد مارتن لوثر عام 1482م، وقد أنكر على الكنيسة صكوك الغفران في بادئ الأمر، فأصدرت الكنيسة ضده قرارًا بحرمانه وذلك في مجمع وزمر 1521م، ويرى أيضًا أنّ لكل= = واحد من المسيحيين الحق في فهم الكتاب المقدس، وليس فهمه حكرًا على الكنيسة، وأنكر أيضا الاستحالة (انظر: محاضرات في النصرانية، للإمام محمد أبو زهرة، ص162-165، دار الفكر العربي).

وأمّا الحرمان الجماعي، فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الإنجليز وبين البابا، فحرمه البابا وحرم أمّته، فعطلت الكنائس من الصلاة، ومنعت عقود الزواج، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة، وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب حتى عاد يوحنا صاغرًا يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا، ولمّا رأى البابا ذلّه وصدق توبته رفع الحرمان عنه وعن الأمة. أمّا حق التّحلة، فهو حق خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدين، وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة؛ مصلحتها هي ذلك). [1]

ولم تتوقف الكنيسة عند هذا الحد، وإنّما جيشت الجيوش من أجل محاربة كل من يخالفها (ومن أوضح الشواهد على ذلك في العصور الوسطى ما تعرض له "الكاثاريون"[2] و"الوالدونيون"[3] الذين لم يتخلوا عن الدين، بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية، تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه، وأنكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها، ومع ذلك فقد أعلنت الكنيسة الحرب عليهم). [4]

---

(1) العلمانية للحوالي، ص129، 130.

(2) الكاثاريون معناها: الأطهار، وكانوا يعرفون بـ(الألبيجينيين) اسم المنطقة الفرنسية التي كانوا يسكنون فيها، كذلك وجدوا في كولون بألمانيا، وشمال إيطاليا، وأسبانيا، وكانوا يدعون إلى العودة للمسيحية الأولى، ويرون أنّ عيسى ليس ابنا لله، ولذلك قاومت الكنيسة هذه الجماعة مقاومة شديدة، ورأت فى وجودها خطرًا على كيانها، ولذلك لّما جلس البابا أنوسنت الثالث على كرسي البابوية عام 1198م – وهو الذي كان له دور كبير وأساس في نشأة محاكم التفتيش بسبب هذه الجماعة ـ رأى في وجود هذه الجماعة وانتشارها خطرًا محدقًا بالكنيسة، فأصدر الأمر بقمعهم وبشن حملات ضارية عليهم (راجع: أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، د. أحمد علي عجيبة، ص18 – 22، دار الأفاق، الأولى 2004م).

(3) الوالدانيون نسبة إلى بطرس والدو، وقد بدأ دعوته عام 1173م حيث أنكر على الكنيسة ثرائها ودنيويتها، وكان مقر هذه الحركة في فرنسا، وكانوا يدعون إلى العودة إلى المسيحية الأولى، ويدعون إلى الزهد والتقشف، وكانوا يعرفون بفقراء ليون، فما كان إلا أن أحرقتهم الكنيسة= =بالنار (راجع: المسيحية في العصور الوسطى، للكاتب المسيحي جاد المنفلوطي، ص131-136، دار الجيل للطباعة بالفجالة بمصر بدون).

(4) العلمانية للحوالي، ص130.

واستفحل الطغيان الكنسي عندما نصبت محاكم التفتيش[1] لتقتل، وتسجن، وتبيد كل من يخالفها (وبسبب هذا الإرهاب البالغ والطغيان العاتي، عاش الناس تلك الأحقاب ترتعد قلوبهم وترتجف أوصالهم عند ذكر الكنيسة، ووقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بأنّه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها، ولم يستطع العلماء الأفذاذ آنذاك مثل "نيوتن، وبيكون، وديكارت وكانت" أن يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة - لا سيما التثليث والخطيئة والاستحالة، أو على الأقل يجاهروا بمخالفتها).[2]

ب- الطغيان الكنسي السياسي

أمّا الطغيان الكنسي السياسي، فقد كان طغيان الكنيسة في هذا المجال طغيانًا كبيرًا (فقد كان الباباوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة، كما كان في إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة، ولم يكن باستطاعة أحد الإفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فإنّ حكمه أن تعلن الحرب باسم الصليب عليه ويحرم وتحرم أمته.

وخير مثال لذلك حادثة الإمبراطور الألماني "هنري الرابع" المشهورة مع البابا جريجوري السابع وذلك أنّ خلافًا نشب بينهما حول مسألة "التعيينات" أو ما يسمى "التقليد العلماني" فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا، ورد البابا بخلع الإمبراطور، وحرمه، وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه، فعقد الأمراء مجمعًا قرروا فيه أنّه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا، فإنّه سيفقد عرشه إلى الأبد، فوجد الإمبراطور نفسه وحيدًا بين رعيته، ولم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا فضرب بكبريائه

---

(1) محاكم التفتيش: اصطلاح مشتق من كلمة لاتينية بمعنى (يبحث - يتقصى- يفتش) وقد أسسها البابا لوسيوس الثالث (1181- 1185م) ثمّ إنوسنت الثالث (1198-1216م) الذي يرتبط اسمه بقيام محاكم التفتيش بصفة رسمية؛ فهو الذي أرسى قواعدها، وأشرف على قيامها وخاصة في مجمع اللاتيراني الرابع سنة 1215م، واستمرت في قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب لعدة قرون. (انظر: أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، د. أحمد عجيبة ص8).

(2) العلمانية للحوالي، ص 132-133.

عرض الحائط، واستجمع شجاعته وسافر مجتازًا جبال الألب والشتاء على أشده، يبتغي المثول بين يدي البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا وظل واقفًا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام، وهو في لباس الرهبان متدثرًا بالخيش حافي القدمين عاري الرأس، يحمل عكازة مظهرًا كل علامات الندم، وأمارات التوبة، حتى تمكن من الظَفْر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم.

وفي بريطانيا حدثت قصة أخرى مماثلة: فقد حصل نزاع بين الملك هنري الثاني وبين "تومس بكت" رئيس أساقفة كنتربري، بسبب دستور رسمه الملك يقضي على كثير من الحصانات التي يتمتع بها رجال الدين، ثم إن رئيس الأساقفة أغتيل، فروعت المسيحية وثار ثأرها على هنري ودمغته بطابع الحرمان العام، فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام، ثمّ أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة، ووعد بأن يُكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرتضيها، وألغى الدستور، ورد إلى الكنيسة كلّ حقوقها وأملاكها، وبالرغم من ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربري حاجًا نادمًا، ومشى الثلاثة أميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصُّوَّان، حافي القدمين ينزف الدم منهما، ثمّ استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت، وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط، وتقبل ضرباتهم وتحمَّل كل الإهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه). [1]

ج- الطغيان المالي

أمّا الطغيان المالي، فمن مظاهره الأملاك الإقطاعيّة، وامتلاك الأراضي الشاسعة باعتبارها أوقافًا، بدعوى أنّها تصرف عائداتها على سكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية.

وقد فرضت الكنيسة على كلّ أتباعها ضريبة العشور، وبفضلها كانت الكنيسة تضمن الحصول على عشر ما تغله الأراضي الزراعية والإقطاعيات، وعشر ما يحصل عليه المهنيون

(1) انظر: المصدر السابق، ص136.

وأرباب الحرف غير الفلاحين، وكانت الكنيسة تسخر الناس وترغمهم على العمل المجاني في حقولها ومشروعاتها.[1]

2- معاداة الكنيسة للعلم

وقفت الكنيسة ضد أي اكتشاف علمي، يتصادم مع تعاليم الكنيسة، واستخدمت سلطتها في إراقة دماء العلماء، ومصادرة وتحريم الكتب، ومن هؤلاء الذين وقفت الكنيسة ضد مكتشفاتهم واستخدمت سلطتها ضدهم كوبرنيكوس[2] (1473-1543م) صاحب نظرية دوران الأرض حول الشمس، وهي النظرية المناقضة لنظرية (بطليموس)[3] التي تحكم على الأرض بالثبوت، وهي النظرية التي سيطرت على الكنيسة خمسة عشر قرنًا.[4]

يقول داونز: (كانت النظرية التي حاول كوبرنيكوس إثبات صحتها أو خطئها، مناقضة تماما للنظام البطليموسي الذي ظل مدة طويلة يحظى بالإحترام والتقدير، كانت هذه النظرية باختصار، هي أن الأرض ليست ثابتة وإنّما تدور حول الشمس مرة كلّ سنة، كانت تلك الفكرة غريبة على القرن السادس عشر، حتى إن كوبرنيكوس لم يجرؤ على تقديمها إلا بعد اقتناعه تمامًا بأنّ لديه من المعلومات مالا يمكن دحضه، ومن ثمّ مضت ثلاثون سنة قبل إظهار نظرية كوبرنيكوس إلى العالم).[5]

---

(1) انظر: المصدر السابق، ص 140-143.

(2) فلكي بولندي، يُعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها، في كتابه في ثورات الأجواء السماوية.

(3) فلكي وجغرافي يوناني شهير، ولد عام 90م، وتوفي 168م. نشأ في الاسكندرية ودرس فيها. أشهر مؤلفاته: (المجسطي) و(الجغرافية) وله نظريته في هيئة الافلاك، وهي أن الأرض لا تتحرك، وأنّ الفلك لا يدور حولها. وبقيت هذه النظرية زمنا إلى أن فندها كوبرنيكوس في القرن السادس عشر.

(4) حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، د. يحيى هاشم فرغل، ص13، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف (بدون).

(5) كتب غيرت العالم، روبرت ب. داونز ص219 ترجمة أمين سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977م.

وعن تردده وخوفه من نشر ما توصل إليه يقول كوبرنيكوس في رسالته إلى البابا بولس الثالث: (إنني ترددت لمدة طويلة، هل أنشر ما كتبته للبرهنة على حركتها- الأرض- أو أحذو حذو فيثاغورث وأتباعه الذين دأبوا على الإفضاء بأسرارهم الفلسفية لأقاربهم وأصدقائهم شفويًا، وعندما تأملت في هذا كثيرًا كدت أضع هذا العمل جانبًا، بسبب الازدراء الذي يحق لي أن أتوقعه، لكون نظريتي جديدة وعلى نقيض ما يقبله العقل)[1] أي العقل الكنسي.

وقد قوبلت نظريته تلك بغضب عارم من الكنيسة، حيث حرمت كتابه (حركات الأجرام السماوية) ولم ينج هو من محكمة التفتيش، إلا أنّ المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل[2]، وظلت آراؤه محرمة إلى ما بعد وفاته بثلاثة قرون.[3]

وبموت كوبرنيكوس، وتحريم آرائه، ظنت الكنيسة أنّ أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخر هو "جردانو برونو"[4] بعث النظرية بعد وفاة صاحبها فقبضت عليه محكمة التفتيش وزجت به في السجن ست سنوات، فلمّا أصر على رأيه أحرقته سنة 1600م، وذرّت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

وبعد موته ببضع سنوات كان "جاليلو"[5] قد توصل إلى صنع المرقب "التلسكوب" فأيد تجريبيًا ما نادى به أسلافه نظريًا، فكان ذلك مبررًا للقبض عليه ومحاكمته، و" قضى عليه سبعة من الكرادلة[6] بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرّة كلّ

---

(1) المصدر السابق، ص223.

(2) انظر العلمانية، للحوالي ص150.

(3) حقيقة العلمانية، الدكتور يحيى هاشم فرغل، ص15.

(4) جوردانو برونو، أو المعروف أيضًا بـ نولانو أو برونو دي نولا، فيلسوف إيطالي حكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثولوكية. ولد عام 1548م، وتوفي عام 1600م.

(5) جاليلو جاليلي، عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في عام1564م وتوفي 1642م.

(6) الكاردينال، هو مركز رسمي لأسقف في الكنيسة الكاثوليكية، وهو عضو كليّة الكرادلة، ويأتي في المركز تحت البابا فورًا، ويتم تعيين الكرادلة من قِبل البابا. يتولى الكرادلة مهمّة انتخاب البابا القادم في حال وفاته.

أسبوع طوال ثلاث سنوات"، ولمّا خشي على حياته أن تنتهي بالطريقة التي انتهى بها برونو أعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة.[1]

هذا الاضطهاد للعلم وللعلماء، كان هو الشرارة التي انطلقت منها موجة الرفض للكنيسة ولتعاليمها.

3- التأثر بالعقل الإسلامي

ومن أهم الأسباب التي جعلت العقل الأوروبي يتمرد على الكنيسة؛ هو الإتصال بالعقل الإسلامي (سواء في الحروب الصليبية أو البعوث التي بعثتها للتعلم في مدارس المسلمين في الأندلس بصفة خاصة، وفى صقلية وغيرها من البلاد التي نورها الإسلام).[2]

وقد عرفت البلاد الإسلامية ببلاد العلم، واللغة العربية هي لغة العلم يقول روجر بيكون (في القرن الثالث عشر الميلادي): "من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية لأنّها هي لغة العلم".[3]

وقد اعترف المنصفون من الأوربيين بتتلمذهم على يدي المسلمين، يقول راندال[4]: (اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية، التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنيّة).[5]

ويصف راندال الحضارة الإسلامية بقوله: (وبنوا في القرن العاشر في أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كان علمًا طبق على الفنون، والصناعات الضرورية

---

(1) العلمانية للحوالي ص 150، 151.

(2) مذاهب فكرية معاصرة، الأستاذ محمد قطب، ص452، دار الشروق السابعة.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(4) ولد جون هرمان راندال في ولاية متشيجان بالولايات المتحدة الأمريكية في 11 فبراير عام 1899م حصل على الدكتوراة في الفلسفة عام 1922م، وعين أستاذًا في جامعة كولومبيا 1935م.

(5) تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال ج1 ص313، ترجمة الدكتور جورج طعمة، مراجعة برهان الدين الدجاني، تقديم الدكتور محمد حسين هيكل، دار الثقافة بيروت (بدون).

للحياة، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى، التفكير العلمي، والحياة الصناعية العلمية، التي تمثلها في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة).[1]

وباحتكاك الغرب بالعالم الإسلامي وجد (عالمًا عجيبًا بالنسبة إليه، ليس فيه بابوات ولا رجال دين! وليست فيه أسرار عقديّة يختص بعلمها فريق من الناس دون فريق .. وليس فيه " نبلاء!" يستعبدون الناس في إقطاعياتهم .. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس)[2]، فأخذ يبحث في كلّ مسلماته، واهتدى أخيرًا إلى استبعاد المسيحية من واقع حياته.

4-الثورة الفرنسية:

لم يكتف خصوم الكنيسة في أواخر القرن الثامن عشر بلغة الفكر والعلم والبحث، فحولوا الصراع إلى صدام مسلح، وكانت الثورة الفرنسية تعلن غضبتها العارمة على أساليب القمع والإضطهاد والتنكيل، وعلى سحب الجهل التي خيمت على ربوع البلاد وعلى الطغيان الكنسي بكل صوره: الديني، والروحي، والسياسي، والمالي، والاجتماعي.

ولم يكن المستهدف من قيام الثورة القضاء على سلطان الكنيسة وحدها، بل كان ملوك الإقطاع وأئمة الإستبداد السياسي من الأهداف التي قامت الثورة من أجلها، وإنّ الشعار الذي كان ينادي به الثوار لأبلغ تعبير وأوجز إعلام بالأهداف الكبرى التي تريد تحقيقها **يقول الشعار:**

(اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

وقد حققت الثورة أهدافها، ودخلت أوربا في عصر النهضة بعد طول ظلام وأزاحت الكابوس الذي كان جاثمًا على صدرها، وسقط سلطان الكنيسة إلى الأبد، وانكمش سدنتها داخل جدرانها، وانحسر المد الذي كان يتدفق نحوها، وحدث ذلك التطور الخطير في حياة أوروبا في كلّ مجال من مجالات الحياة.[3]

---

(1) المصدر السابق، ج1، ص 214.

(2) مذاهب فكرية معاصرة، الأستاذ محمد قطب، ص 453.

(3) الإسلام وتأسيس الأيديولوجيات المعاصرة، د. عبد العظيم المطعني، ص 83، مكتبة وهبة، الأولى 1987م.

الآثار التي خلفتها الثورة الفرنسية

بمقدار الكبت النفسي لدى الشعب الفرنسي كان رد الفعل قويًا، فقد (حصدت المقصلة معظم رؤوس أعدائها من الفئات المترفة في النعيم، والمتحكمة في المصائر، وقامت بأعمال غريبة هوجاء؛ فقد حَلت الجمعيات الدينية، وسرحت الرهبان والراهبات، وصادرت أموال الكنيسة، وألغت كل امتيازاتها، وحاربت العقائد الدينية علنا وعلى رؤوس الأشهاد، وأصبح رجال الدين موظفين مدنيين لدى الحكومة.

كانت هذه هي النتائج السريعة للثورة، أمّا النتائج المتأنية فقد جاءت على النحو التالي:

1. ولدت عنها دولة جمهورية لا دينية، تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب بدلا من الحكم باسم الله.
2. دعت إلى حرية التدين بدلا من ضرورة التدين ولو على وجه صحيح.
3. دعت إلى الحرية الشخصية في العمل والسلوك بدلا من التحلي بمكارم الأخلاق.
4. أصدرت دستورًا وضعيًا ليكون أساس للحكم بدلاً من التوجهات الدينيّة.[1]

عوامل مساعدة

بجانب الأسباب سالفة الذكر، وجدت عوامل مساعدة ساعدت على ظهور العلمانية منها:

1. ترجمة الثقافة اليونانية القديمة إلى اللغات الأوروبية؛ وهذه (الثقافة القديمة تنضح بالوثنيّة – الوثنية الشعبيّة – من كل جانب، فانتشرت الوثنيّة في الأفكار، والأخلاق؛ رأى فيها فريق كبير من الغربيين صورة إنسان الفطرة والطبيعة، واعتبروا دراسة القدماء كفيلة وحدها بتكوين الإنسان بمعنى الكلمة، فسميت هذه النزعة بالإنسانية أي المذهب الإنساني، وسميت الآداب بالإنسانيات).[2]

ولدت هذه الثقافة اليونانية ما أسماه يوسف كرم[3]

---

(1) المصدر السابق، ص 84.

(2) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص 6 دار المعارف، الخامسة.

(3) يوسف كرم: باحث لبناني الاصل توفي عام 1959م. ومولده ووفاته في طنطا (بمصر) تعلم الفلسفة في باريس، وتولى تدريسها في الجامعة المصرية نحو 25 سنة، له كتب مطبوعة، منها "تاريخ الفلسفة اليونانية" و"الطبيعة وما وراء الطبيعة" و"تاريخ الفلسفة الحديثة" و"العقل والوجود" (الأعلام للزركلي، ج 8، ص 246 دار العلم للملايين الخامسة عشر 2002).

(بالفردية العنيفة في الأدب، والدين، والسياسة).[1]

2. الاكتشافات الجغرافية التي كشفها كولومبوس[2]، وفاسكو دي جاما[3]، وماجلان[4]، ودريك[5]، وقد جاءت بمعلومات كثيرة عن شعوب كانت بمعزل عن المسيحية، وكان لها أديان وأخلاق.[6]

وكان من آثارها ظهور (فكرة الدين الطبيعي[7]، الأخلاق الطبيعيّة، وهكذا تكونت في الغرب المسيحي نظرية جديدة في الإنسان تقنع بما يسمى بالطبيعة، وتستغني عما فوق الطبيعة).[8]

3. ظهور حركة الإصلاح الديني (البروتستانت)

يقول يوسف كرم: (فما كانت البروتستانتية في البدء إلا احتجاجًا على الغفرانات، ودعوى الإصلاح في الإدارة الكنسيّة، والعبادة، ثمّ زعمت أنّ الدين يقوم على الفحص الحر أي الفهم الخاص للكتاب المقدس، وعلى التجربة الشخصيّة بغير حاجة إلى سلطة تحدد معاني الكتاب، ثمّ تناولت العقائد بالفحص الحر فذهبت فيها كلّ مذهب، وبددت علم اللاهوت غير محتفظة إلا بعاطفة دينية عاطلة من كلّ موضوع).[9]

---

(1) المصدر السابق، ص 7.

(2) كريستوف كولومبوس توفي في 1506م. رحالة إيطالي مشهور، ينسب إليه اكتشاف أمريكا.

(3) ولد فاسكو دي جاما في 1469 م في البرتغال وتوفي في عام 1524 م في كاليكوت بالهند ويعد من أنجح مستكشفي البرتغال وهو أول من سافر من أوروبا إلى الهند بحرًا، وهو مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح.

(4) فرناندو ماجلان رحالة ومستكشف برتغالي وهو أول من دار حول الكرة الأرضية. في 3 مارس عام 1521م اكتشف البحار ماجلان جزيرة جوام في المحيط الهادي في إطار رحلة ماجلان حول العالم التي انتهت به في الفلبين.

(5) فرانسيس دريك قرصان وقائد عسكري، ويعد أول إنجليزي يُبحر حول العالم اكتشف سواحل المحيط الهادئ المطلة على أمريكا الشماليّة.

(6) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص6.

(7) الدين الطبيعي: مذهب فكري يدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي، ويؤكد على عدم تدخل الله في نواميس الكون.

(8) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(9) المصدر السابق، ص 6، 7.

ثانيًا: مراحل العلمانية في الغرب

مرّت العلمانية في الغرب بمرحلتين:

الأولى: مرحلة العلمانية المعتدلة، وهي مرحلة القرنيين السابع عشر والثامن عشر.

والثانية: مرحلة العلمانية المتطرفة، وهي مرحلة القرن التاسع عشر وقد بلغت قمتها في التطرف في الفكر المادي التاريخي.

فالمرحلة المعتدلة، وإن اعتبر الدين أمرًا شخصيًا لا شأن للدولة به، فإنّ على الدولة مع ذلك أن تحمي الكنيسة وبالأخص في جباية ضرائبها، وإنّ طالب التفكير العلماني في هذه المرحلة يؤكد على الفصل بين الدولة والكنيسة، ولا يسلب المسيحية كدين من كل قيمة لها، وإن كان ينكر فيها بعض تعاليمها، ويطالب بإخضاع تعاليم الكنيسة للعقل وإلى مبادئ الطبيعة وما نشأ عنه، وهو المذهب المعروف باسم (deism) وهو مذهب يعترف بوجود الله كأصل للعالم، ولكنه ينكر الإعجاز والوحي وتدخل الله في العالم.[1]

والمرحلة الثانية للعلمانية، وهي مرحلة العهد المادي أو ما يسمى بالثورة العلمانيّة مرحلة اليسار المتطرف في مدرسة هيجل[2] في القرن التاسع عشر.[3]

وفي مرحلة العلمانية المتطرفة أو ما يسمى بمرحلة اليسار المتطرف في مدرسة هيجل نجد:

أولاً: أنّ علمانية فيرباخ[4] وهي التي تتمثل في مذهبه الإنساني الإلحادي، هي إلغاء الدين أي دين، وليست فصلاً بينه وبين الدولة بمفهوم العلمانية في مرحلتها الأولى، وإحلال (الإنسان العام) جماعة العمل في العبادة محل الله.

---

(1) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د. محمد البهي، ص32، 33، هدية مجلة الأزهر لشهر ذي الحجة، 1428هـ.

(2) فيلسوف ألماني ولد علم 1770م وتوفي بالكوليرا عام 1831م من مؤلفاته التي نقلت إلى العربية: المدخل إلى علم الجمال: فكرة الجمال، وظاهريات الروح، ومحاضرات في تاريخ الفلسفة، وأصول فلسفة الحق، ومحاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ، حياة يسوع.

(3) المصدر السابق، ص 42.

(4) ولد لودفيج فيورباخ عام 1804م، في مدينة (بافاريا) الألمانية، وتوفي عام 1872م.

ثانيًا: أنّ علمانية ماركس[1] وهي التي تتمثل في الماديّة التاريخيّة الإلحاديّة، هي هدم الدين كمقدمة ضروريّة لقيام عالم يكون الإنسان فيه سيد نفسه، وتنتهي سيادة الإنسان إلى سيادة المجتمع والدولة، ووضعها بالنسبة للأفراد هو وضع المعبود الخالق من الأفراد المخلوقين.

ثالثًا: أنّ علمانية لينين[2] ينتهي أمرها إلى إلغاء المسيحية كدين ووضع (البلشفية)[3] وهي الماركسية اللينينية كدين جديد بدلاً منها، وهذا الدين الجديد يجب أن يكون في خدمة الواقع الذي هو الحزب، والحزب يأخذ الآن في هذا الدين الجديد مكان العبادة عوضًا عن الله في المسيحية ومكان القداسة عوضًا عن الكنيسة.[4]

الفرق بين المرحلتين

والفرق بين المرحلتين هو أنّ دافع العلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هو التنازع على السلطة بين الدولة والكنيسة، ولذا كان الفصل بين السلطتين هو الحل الفلسفي أو الرسمي لهذا التنازع.

والدافع عليها في القرن التاسع عشر أو فيما يسمى باليسار الثوري أو المتطرف في مدرسة هيجل هو الاستئثار بالسلطة؛ ولذا كانت العلمانية غير مساوية لمفهوم الفصل بين الكنيسة والدولة بل كانت إلغاء للثنائية بهدم الدين كمقدمة ضرورية للوصول إلى السلطة المنفردة، التي هي سلطة جماعة العمل أو المجتمع أو الدولة أو الحزب حسب تحديد هؤلاء اليساريين المتطرفين.[5]

---

(1) ولد كارل ماركس في 5 مايو 1818م. في ألمانيا من أصل يهودي، وفي 14 مارس 1883، توفى كارل ماركس ودفن في مقبرة هاي غيت بلندن.

(2) فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بـ (لينين) وُلد في مدينة سيمبيرسك الروسية (تعرف اليوم باسم أوليانوفسك)، في عام 1891م، وتوفي عام 1924م.

(3) البلشفية أو البلاشفة أو البلشفيك وهي كلمة روسية وتعني الكثرة أو الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين، في حزب العمل الإشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام 1903م وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سمي البقية بالمونشفيك (أي الأقلية)، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي، وقد ظلت تلك الجماعة تعرف بهذا الاسم حتى بعد نجاح أكتوبر عام 1917 التي عرفت باسم الثورة البلشفية.

(4) المصدر السابق، ص 56، 57

(5) المصدر السابق، ص 55

مآل العلمانيّة في الغرب

إنّ العلمانيّة السائدة في الغرب ليست هي فصل السلطات المدنية والكنسيّة، ولا تخريب الديانة المسيحيّة المخربة أصلاً، وإنّما مآل العلمانية في الغرب إلى إنشاء ديانة جديدة.

يقول الدكتور يحيى هاشم فرغل: (إذا كانت العلمانيّة قد انتهت في كثير من المواقع إلى صياغة علاقة جديدة بالمسيحيّة، هي أشبه بعلاقة الفصل بين السلطات، فإنّ الأمر الذي لا شك فيه أنّ هذه العلمانية قد انتهت في مواقع أخرى إلى تخريب الديانة المسيحية وتدميرها ... حدث ذلك في كثير من الضمائر، كما حدث في كثير من النظم، وكثير من السلطات.

إلا أنه حتى في هذه المواقع فإنّ مآل العلمانيّة لم يكن إلى إسقاط الدين بالكلية كما هو زعم أصحابها في مشروعها لبناء المستقبل، وإنّما الذي حدث هو أنّها استبدلت دينًا بدين، أزاحت الديانة المسيحيّة وهي ديانة وضعيّة خالصة بها آثار من دين الله، واتخذت مكانها ديانة وضعيّة خالصة لا صلة لها بدين الله.

إنّ الإلحاد المعاصر وهو يحارب الدين المنزل من الله، فإنّه يدعو إلى ديانة وضعية من صنع البشر).[1]

هذه الديانة تقوم على عبادة المادة، يقول المستشرق المسلم ليوبولدفايس (محمد أسد): (إنّ الأوروبي العادي سواء عليه أكان ديمقراطيًا[2] أم فاشيًا[3]، رأسماليًا[4] أم بلشفيًا، صانعًا

---

(1) حقيقة العلمانية، د. يحيى هاشم فرغل ص55.

(2) الديمقراطيّة كلمةٌ مركبة مِن كلمتين: الأولى مشتقة من الكلمة اليونانية Demos وتعني عامة الناس، والثانية kratia وتعني حكم. وبهذا تكون الديمقراطية Demoacratia تَعني لغةً 'حكم الشعب' أو 'حكم الشعب لِنفسهِ' وهي نظام من أنظمة الحكم مصدر القوانيين والتشريعات فيها للشعب أو لجمهور الناس.

(3) الفاشيّة، شكل من أشكال الحكومات التي يرأسها ديكتاتور، وغالبًا ما تنم عن سيطرة الحكومة سيطرة تامة على النشاطات السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والاجتماعيّة. والفاشيّة شبيهة= =بالشيوعية. على أنّها بخلاف الشيوعية ـ التي تملك فيها الحكومة كل الصناعات ـ تبيح الفاشيّة للصناعة أن تبقى ملكية خاصة، ولكن تحت سيطرة الحكومة. وتشمل المظاهر الأخرى للفاشيّة التطرف الوطني، والسياسات النازعة للعسكرية، والتوسّع، والغزو واضطهاد الأقليات. وكلمة فاشيّة، صفة أيضًا لكل نظام حكم، أو مفهوم سياسي، يشبه حكم بنيتو موسوليني، وأدولف هتلر وسياساتهما. فقد قامت حكومتان فاشيتان في كل من إيطاليا، بقيادة موسوليني من سنة 1922م إلى سنة 1943م، وفي ألمانيا بقيادة هتلر من سنة 1933م إلى سنة 1945م.

(4) الرأسماليّة، نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية يقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في مفهوم الحرية توسعا لا حدود له.

أم مفكرًا، يعرف دينًا إيجابيًا واحدًا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر أو كما يقول التعبير الدارج: طليقة من ظلم الطبيعة، إنّ هياكل هذه الديانة إنّما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأمَّا كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران، وإنّ النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرّة، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضًا حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

أمّا على الجانب الثقافي، فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العمليّة، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنّما هو التقدم المادي). [1]

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر[2]:

(لماذا حمل دكتور شبلي شميل[3] على الأديان؟

---

(1) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ص 47، 48 ترجمة د.عمر فروخ، بيروت التاسعة 1977م .

(2) ولد إسماعيل مظهر في عام 1891م وتوفي في عام 1962م مولده ووفاته في القاهرة، نشأ في بيت علم ووجاهة، وتعلم بالمدرسة الناصرية ثم الخديوية. وتركها، وأصدر وهو طالب (صحيفة) علميّة، وانتسب إلى الحزب الوطني، فكتب في صحفه، وسافر إلى انجلترا (1908 – 1914) فدرس في جامعة لندن وجامعة أكسفورد، وعاد فقرأ طائفة من أمهات الكتب العربية وغيرها في بيته، وصنف كتبًا كثيرة في مختلف العلوم ولاسيما الفلسفة كما ترجم عدة كتب= =عن الانكليزية، وأصدر مجلة (العصور) سنة 1927 – 1931 ورأس تحرير مجلة المقتطف 1945 – 1948 وأبرز آثاره (معجم مظهر الانسيكلوبيدي) ثلاثة أجزاء منه، و(قاموس النهضة) انجليزي عربي في 2500 صفحة و(قاموس الجمل والعبارات الاصطلاحية في الانجليزية والعربية) ومن كتبه (فك الاغلال) و(الاسلام لا الشيوعية) و(فلسفة اللذة والالم) و(الحيتان) و(ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء) و(معجم الثدييات) و(مصر في قيصرية الاسكندر المقدوني) و(مهاتما غاندي، سيرته)، و(تاريخ الفكر العربي في نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل) و(معضلات المدنية الحديثة) و(المرأة في عصر الديموقراطية) ومما ترجم عن الانجليزية (علاقة الانسان بالكون) لطاغور، وكان لتخيره النواحي العلمية فيما يكتب، يطرأ على أسلوبه شئ من الجفاف. (الأعلام للزركلي، ج 1، ص 327) والجدير بالذكر أنّه تراجع عن أفكاره في نهاية حياته وذلك في كتابه الإسلام لا الشيوعية.

(3) شبلي بن إبراهيم شميل: طبيب، بحاث، كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشته وآرائه. ولد في قرية كفرشيما (بلبنان) عام 1853م، وتعلم في الجامعة الاميركية ببيروت، وقضى سنة في أوربا.=

حمل عليها متابعة لرأيه المادي جريًا وراء غاية محدودة، غاية سعى إليها كثير من ماديي القرن الثامن عشر، وتنحصر تلك الغاية في أن يتبدل الناس بدينهم دينًا آخر، وما هو هذا الدين؟

هو عبادة المادة

أرادوا أن ينظروا إليها على أنّها المصدر الأول للإنسان والعلّة الأولى التي فطرته، وأنّها التي تحبوه بأسلوب الحياة التي ينعم بها فوق هذه الأرض، ناهيك بأنّ إليها مرده ومعاده).[1]

فأصبح الفكر الأوروبي فكرًا ماديًّا إلحاديًّا يتسم بثلاث سمات:

1. حصر وسيلة المعرفة في الحواس؛ على معنى أنّ الماديين يرفضون كلّ معرفة آتية من غير طريق الحواس، ومنهجهم في التفكير هو الاعتماد على التجربة والملاحظة، ومن هنا يرفضون وصف أيّ معرفة آتية من غير طريق الحواس باليقين فبدون الحواس لا تتم معرفة.

2. يترتب على ذلك أنّهم ينكرون ما وراء الحواس، على معنى أنّهم ينكرون كلّ ما يتعلق بالغيب، مثل الإله، والملائكة، والوحي، على اعتبار أنّ الحواس لا تستطيع إدراك شيء من ذلك، وعليه فلا يمكن تحصيل معرفة صحيحة عنه.

3. الدين الذي هو وحي إلهي لا تدركه الحواس لا حقيقة له، ويجب إبعاده عن توجيه الإنسان أفرادًا وجماعات.[2]

=وسكن مصر، فأقام في الاسكندرية، ثمّ في طنطا، ثمّ في القاهرة، وتوفي فيها فجأة. عام 1917م. أصدر مجلة (الشفاء) سنة 1886 – 1891م. وألّف (فلسفة النشوء والارتقاء) و(مجموعة مقالات) مما نشره في الجرائد والمجلات. وله رسالة (المعاطس) صغيرة، على نسق رسالة الغفران للمعري، و(شكوى وآمال) رسالة و(آراء الدكتور شميل) رسالة، و(سورية ومستقبلها) و(شرح بخنر على مذهب داروين) وكتب شروحا وتعليقات على كتب طبية قديمة تولى نشرها، كفصول أبقراط، وارجوزة ابن سينا. وكان من أكبر مزاياه التنديد بالظالمين، والمجاهرة بما يعتقده حقًا، ولو خالف فيه جميع الناس، قلمه ولسانه في ذلك سيان. وله نظم، وليس بشاعر. وكان يجيد الفرنسية، ويعد من الكتاب بها (الأعلام للزركلي، ج3، ص155).

(1) ملقى السبيل في مذهب النشوء والإرتقاء وأثره في الانقلاب الفكري الحديث، الأستاذ إسماعيل مظهر، ص43، المطبعة العصرية بالفجالة (بدون).

(2) أضواء على حاضر العالم الإسلامي، د. محمود عبد الحكيم عتمان، ص 82، 83، الدار الإسلامية للطباعة والنشر بالمنصورة الثانية 2001م.

المطلب الثاني: العلمانية في العالم الإسلامي

أولاً: انتقال العلمانية إلى الشرق

على الرغم من أنّه لا يوجد سبب حقيقي ومبرر لوجود العلمانيّة في العالم الإسلامي إلا أنّها قد انتقلت إليه عن طريقين اثنين:

أولهما: الطريق اللبناني:

فمسيحيو الشام كانوا (يمثلون طليعة المفكرين فيها ويرجع ذلك لسبب هام، وهو النمو النسبي المالي والتعليمي بين فئات معينة من سكان الشام المسيحيين، وخاصة في لبنان نتيجة أنّ حركة التجارة بين بلدان الشرق الأدنى والأوسط وأوربا كانت تتم عن طريقهم، لذلك كانوا يتمتعون بحماية قناصل البلدان الأوربية، الأمر الذي عزز مكانة مسيحيي الشام فشغلوا مناصب الأمناء والمستشارين والكتبة للأمراء، لذا فقد سعوا إلى نقل الفكر التنويري الذي يحقق لهم المكانة الإجتماعيّة، وذلك بأن يقيموا المجتمع على أسس غير دينية بعد أن حققت لهم البلاد الأوربية المكانة المالية).[1]

فهم إذن (أول من نقل الفكر العلمانيّ الخالص بمساعدة أوربية).[2]

ولكن يبدو أنّ الطائفية في لبنان لم تساعد الغرب لتحصيل أغراضه في زرع العلمانيّة، وكانت (فتنة الستين الرهيبة[3] في لبنان والتي وقعت سنة 1860م تمخضت عن مجزرة رهيبة في صفوف اللبنانيين، واستهدفت البعثات التبشيريّة الكاثوليكيّة وخصوصًا اليسوعيّة التي كانت أكثر الطوائف نشاطًا في ممارسة التنصير.

كانت هذه المجزرة دافعًا قويًّا للتلاميذ "المدللين" إلى الهجرة من لبنان إلى مصر، وخلافًا لما يؤكده بعض الباحثين من أنّ هجرة هؤلاء المفكرين كانت لأسباب وعوامل سياسيّة

---

(1) العلمانية الأثر والنشأة، زكريا فايد، ص 114.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(3) حدثت في سنة 1860م مذبحة مروعة قادها الدروز في بلاد الشام، راح ضحية المذبحة ثلاثة آلاف مسيحي من دمشق، عدا الأعداد الكبيرة من الموارنة في ساحل لبنان وزحلة والذين لجأوا إلى جبال الشوف للاحتماء من غدر الدروز. تدخل والي الشام العثماني عسكريًا حين وصول الخبر إليه لحقن الدماء.

واجتماعيّة وثقافيّة، وبحثًا عن الحرية، فلا يستبعد أن تكون هذه الهجرة نتيجة لمؤامرة دبرت، وخطة رسمت في الأروقة الغربيّة، وأوعز بتنفيذها إلى هؤلاء المتغربين، ومن ثمّ نقلوا نشاطهم من لبنان إلى مصر.

وكان من هؤلاء المهاجرين فرنسيس مراش[1] بين عامي 1867 – 1873م، وخليل سعادة[2]، ونجيب حداد[3] بين عامي 1867 – 1899م، وشبلي شميل هاجر إلى الإسكندرية سنة 1886م، وفرح أنطون[4] هاجر سنة 1897م، واستقر في مصر

(1) فرنسيس بن فتح الله بن نصر مرّاش. أديب، من الكتاب، على ضعف في لغته، له نظم كثير، في بعضه جودة وجزالة. مولده ووفاته في حلب، عمي في أعوامه الأخيرة له: (رحلة إلى باريس)، و(شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة)، و(غابة الحق)، و(مشهد الأحوال)، و(المرآة الصفية في المبادئ الطبيعية) رسالة، و(مرآة الحسناء) ديوان منظوماته. (الأعلام للزركلي، ج5، ص142).

(2) خليل سعادة مجاعص ولد في عام 1857م وتوفي في عام –1934م: طبيب، لبناني الأصل، تعلم في الكلية الأمريكية ببيروت، واشترك مع إبراهيم اليازجي في تحرير مجلة (الطبيب)، وانتقل إلى مصر ثمّ إلى البرازيل فاستقر في سان باولو إلى أن توفي. كان من كبار العاملين في الحركة السوريّة العربية في المهجر، وتولى تحرير جريدة (الرابطة السورية الوطنية) وله (الوقاية من السل الرئوي) و(قاموس سعادة) إنكليزي عربي، و(ترجمة إنجيل برنابا). (الأعلام للزركلي ج 2 ص 318).

(3) نجيب بن سليمان الحداد ولد في عام1867 م وتوفي في عام 1899م: صحفي أديب، له شعر. وهو ابن أخت الشيخ إبراهيم اليازجي، ولد في بيروت، وتعلم بها وبالاسكندرية. وكان في هذه من كتاب جريدة "الاهرام" ومجلة "أنيس الجليس" وأصدر مع آخرين جريدة "لسان العرب" يومية، ثم اسبوعية بالقاهرة. وعاد إلى الاسكندرية فتوفي بها. له "تذكار الصبا" وهو ديوان شعره، وقصص "روائية" منها "رواية صلاح الدين الايوبي" و "شهداء الغرام " و "حمدان". (الأعلام للزركلي ج 8 ص12).

(4) فرح بن أنطون بن الياس أنطون ولد في عام 1874م وتوفي في عام 1922م: كاتب باحث، صحفي، روائي. ولد وتعلم في طرابلس الشام. وانتقل إلى الاسكندرية سنة 1897م، فأصدر مجلة "الجامعة" وتولى تحرير "صدى الاهرام" ستة أشهر، وأنشأ لشقيقته روز أنطوان حداد مجلة "السيدات" وكان= =يكتب فيها بتواقيع مستعارة. ورحل إلى أميركا سنة 1907 م، فأصدر مجلة وجريدة باسم "الجامعة" ثم حجبهما. وعاد إلى مصر، فشارك في تحرير بضع جرائد، وكتب عدة روايات تمثيلية، وعاود إصدار مجلته، فاستمر إلى أن توفي في القاهرة. من آثاره: "مجلة الجامعة" ستة مجلدات، و"ابن رشد وفلسفته" و"تاريخ المسيح" ترجمه عن الفرنسية، ونحو خمس وعشرين رواية، منها "الدين والعلم والمال" و"الكوخ الهندي" و"الوحش" و"بولس وفرجيني" و"أورشليم=

أيضًا كل من يعقوب صروف[1]، ونقولا حداد[2]، وفارس نمر[3].[4]
ومن مصر بدءوا نشاطًا تنويريًّا عاصفًا.[5]

=الجديدة". وكان عزيز النفس، لين الطبع، جلدا على العمل، راضيًا بالكفاف. (الأعلام للزركلي، ج 5، ص 141).

(1) يعقوب بن نقولا صروف (ولد في عام 1852م وتوفي في عام 1927م): عالم بالفلسفة والرياضيات والفلك، من أئمة المترجمين عن الانكليزية. ولد في قرية "الحدث" بقرب بيروت، وتعلم ببيروت في الجامعة الاميركية، وامتاز بالرياضة والفلسفة، واشتغل بالأدب، وله نظم جيد، وعلم في صيدا وطرابلس وبيروت. وأصدر، مع فارس نمر وشاهين مكاريوس، مجلة "المقتطف" سنة 1876 وانتقلوا بها إلى مصر- (سنة 1885) وكانت من أرقى المجلات العلمية العربية، أخرج منها الدكتور يعقوب واحدا وسبعين مجلدًا. وشارك في إصدار جريدة "المقطم" سنة 1889 وصنف وترجم عدة كتب، منها "سر النجاح" و"بسائط علم الفلك" و"الحرب المقدس" و"الحكمة الالهية" و"سير الابطال والعظماء" شاركه في ترجمته عن الانكليزية فارس نمر، و"فصول في التاريخ الطبيعي" و"الحلى الفيروزية في اللغة الانكليزية" ونشر في المقتطف بحثا طويلا في "نوابغ العرب والانكليز" قارن فيه بين المعري وملتن، وابن خلدون وسبنسر، وصلاح الدين وريتشارد قلب الاسد. وله نحو عشرين قصة، منها "فتاة الفيوم" و"أمير لبنان" و"فتاة مصر" قال خليل ثابت: كان محققا باحثًا، أضاف إلى ثروة اللغة العربية ألفاظا واصطلاحات علمية عديدة ابتكرها أو نحتها أو استخرجها من المظان المجهولة وساقها في عرض مقالاته في الفلسفة والأدب والتاريخ. (الأعلام للزركلي، ج 8، ص 202).

(2) نقولا بن إلياس بن نقولا حداد ولد في عام 1872م وتوفي في عام 1954م: قصصي- اجتماعي، صيدلاني، له اشتغال بالصحافة، ولد في قرية "جون" بلبنان، وتعلم في "صيدا" ودرس الصيدلة في الجامعة الاميركية ببيروت، وأصدر جريدة "المحبة" بصيدا، ثم "الحكمة" ببيروت، مدرسيتان، وسافر إلى مصر- (الأعلام للزركلي، ج 8، ص 45).

(3) فارس "باشا" بن نمر بن فارس أبي ناعسة ولد في عام 1856م وتوفي في عام 1951م: كاتب، من السابقين إلى العمل في الصحافة، في الشرق العربي، ولد في حاصبيا (بلبنان " وقتل أبوه في الفتنة المعروفة بحادثة الستين (سنة 1860م) فحملته أمه إلى بيروت ثم إلى القدس، وعادت به إلى حاصبيا سنة 1868م، وقد تلقى بعض مبادية العلوم في المدارس الإنجليزية وقصد بيروت ثانية، فتخرج بالكلية السورية (سنة 1874م) وعمل في المرصد الفلكي مع الدكتور "فانديك" ثم تولى إدارته. (الأعلام للزركلي، ج 5، ص 127).

(4) العلمانيون والقرآن الكريم (تاريخية النص)، د.أحمد إدريس الطعان ص 133، 134، تقديم د. نور الدين عتر، والدكتور محمد عمارة، دار ابن حزم الرياض، الأولى 2007م.

(5) العلمانية الأثر والنشأة، زكريا فايد، ص 116.

ثانيها: الطريق المصري:

وذلك عندما أحسّ محمد علي باشا بحاجة مصر إلى العلوم والصنائع الحديثة، ولم يجد لها أثرًا في أعلى معهد علمي وهو الأزهر، بل كان علماء الأزهر يعارضون في تدريس هذه العلوم والصنائع في الأزهر.[1]

ومن هذه الحاجة أنشأ مدارس للطب وللهندسة وللترجمة ومدارس للضباط يقول رفاعة الطهطاوي: (فقد أنشأ من أول الأمر مدرستي قصر العيني، والدرسخانة، فكانت أولاهما: كالتجهيزية والمبتديان، والثانية: كالخصوصية؛ يخرج منها المستخدمون بأي ديوان، ثمّ جدد مدرسة الطب والمهندسخانة بعد تجديد عساكر النظام، فكان يخرج منها الأطباء، والمهندسون للمصالح الملكية، والعسكرية من المهرة العظام، ثمّ جدد مدارس الجهادية، ليخرج منها الضباط الفخام ... ومدرسة الألسن الأهلية والأجنبية لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الأجنبية).[2]

ولم يكتف محمد علي بهذه الإنشاءات وإنّما كما يقول الطهطاوي: (أرسل إلى فرنسا عدة إرساليّات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها لتفي بمراده).[3]

وسافر المصريون إلى أوروبا، وجاء الأوربيون والفرنسيون خصوصًا إلى مصر، وكان القرن التاسع عشر هو عصر الانتصار الحاسم للعلمانيّة الماديّة في مرحلتها الثانية في أوروبا.[4]

وتأثر المصريون تأثرًا شديدًا، وهذا التأثر يرجع إلى سببين:

الأول: أنّ محمد علي عندما أنشأ المدارس أنشأها على أساس استبعاد الدين، فكانت (المكاتب والمدارس إمّا خالية من العلوم الدينية تمامًا، وإمّا تدرس فيها بعض المعلومات

---

(1) أضواء على حاضر العالم الإسلامي، د. محمود عبد الحكيم عتمان ص 36.

(2) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، رفاعة الطهطاوي، ص 243، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الثانية.

(3) المصدر السابق، ص 244.

(4) أضواء على حاضر العالم الإسلامي، ص 121.

الدينيّة القليلة التي لا تصلح لتخريج متعلمين متمسكين بالإسلام، وقادرين على مقاومة الضار من الحضارة الغربيّة).[1]

والثاني: هو الانبهار بالحضارة الغربية التي أدهشت الناس عمومًا، وأعضاء الإرساليات التي أرسلها محمد علي وجه الخصوص يقول الدكتور محمد حسين هيكل: (أدهشت الحضارة الغربيّة أعضاء هذه البعثات، فكلّ مظاهرها جديدة أمامهم، والمظاهر المعنويّة في ذلك كالمظاهر الماديّة سواء، وهذه وتلك كلها قوية ناشطة آخذ بعضها برقاب بعض، مستندة كلها إلى هذه الحرية التي كست أوروبا في مختلف الميادين بعد نضال القرون، فالعلم والفن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة).[2]

فتأثر كثير من المصريين بالفكر العلماني، وانتشرت مبادئ الفلسفة الوضعيّة في شكلها الأصلي، حتى إن بعض المصريين قد شربوا من رأس النبع نفسه، فهناك نسخة من كتاب لأوجيست كونت[3] بعنوان خطاب في مجمل الفلسفة الوضعية تحمل إهداء المؤلف إلى تلميذه القديم مصطفى محرمجي، وهو مهندس مصري كان محمد علي قد أرسله إلى باريس كعضو في بعثة تربوية.[4]

وهذا يبين لنا مدى التأثر بالفكر العلمانيّ الغربيّ، الذي يظهر فيما بعد في كتابات وأعمال التنويريين المصريين الذين تأثر بهم الشرق كله، لأنّ مصر هي بوابة الشرق.

---

(1) المصدر السابق، ص 37.

(2) الشرق الجديد، د. محمد حسين هيكل، ص 69، مكتبة النهضة المصرية (بدون).

(3) ولد سنة 1798م وتوفي 1875م، فيلسوف فرنسي وهو مؤسس الفلسفة الوضعية التي ترفض الميتافزيقا وتعتمد على نتائج العلوم الطبيعية الحديثة.

(4) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، نقلاً عن أضواء على حاضر العالم الإسلامي، د.محمود عبد الحكيم عتمان، ص 122.

ثانيا: دور الاستعمار في زرع العلمانية في العالم الإسلامي

عمل الاستعمار الغربي على زرع العلمانيّة في البلاد المستعمرة، وذلك من أول وهلة وضع قدميه في بلاد الإسلام، يقول الدكتور محمد البهي رحمه الله وطيب ثراه: (ويوم أن تحرك المجتمع الأوربي لاستعمار القارتين الأفريقية والآسيوية، وعلى الأخص في القرن التاسع عشر، من أجل تقدم الصناعة الأوروبية وازدهار الاقتصاد الغربي .. كان في قمة مجده بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة، واستقلاله بالسلطة الزمنية وبالحرية الفردية في التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياسية .. كما كان في أشد الأوضاع حرصًا على اتجاه العلمانيّة كمثال للإنسانية.

فاستصحب الاستعمار معه هذا الإتجاه بما يستتبعه في الحكم، والتوجيه، والتشريع، والاقتصاد في المجتمع الإسلامي الذي يتمكن منه.

وما يستتبعه في الحكم هو: النظام الديمقراطي .. والحزبية السياسية .. والقوة اللادينية.

وما يستتبعه في التوجيه والتشريع هو البعد عن الدين، وعن معايير السلوك: "وهذه المعايير في المجتمع الإسلامي هي ما يمثله الفقه من الأحكام الشرعية".

وما يستتبعه في الإقتصاد هو: النظام الرأسمالي، أو الاقتصاد الحر البعيد عن توجيه الدولة، فضلا عن تدخلها فيه).[1]

ومما هو مسجل في صفحات التاريخ: أنّ المجتمع الإسلامي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا: الهند في سنة 1859م ومناطق الخليج الإسلامي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة 1849م، ومصر في سنة 1882 م، والسودان في سنة 1898م.

واحتلت فرنسا: الجزائر في سنة 1830م، وتونس في سنة 1881م، والمغرب سنة 1912م.

واحتلت إيطاليا: طرابلس الغرب في سنة 1911م.

واحتلت هولندا: جزر الأرخبيل الأندونيسية تباعا منذ عام 1903م.

---

(1) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، مشكلات الأسرة والتكافل، د. محمد البهي، ص 41، مكتبة وهبة، الثالثة 1982م.

وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر في سنة 1873م، وسيطرت بإشرافها على المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا، وهي أذربيجان، وكازخستان، وأوزبكستان، ونوركيستان، وكزيخستان .. سيطرة تامة في القرن التاسع عشر، ولم يسلم من الإحتلال الأوروبي سوى: اليمن، والحجاز، وإيران، ووسط تركيا.[1]

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمانية، ومحاولة تطبيقه في المجتمع الإسلامي، وهو مجتمع يغاير في خصائصه، وتاريخه، وواقعه، المجتمع الأوروبي .. اضطر هذا الاستعمار إلى أن يسلك طريقًا يمكنه من هذا التطبيق. وهو طريق عزل المجتمع الإسلامي كليّة عن ماضيه، وعن تراثه العقلي، والروحي، والتوجيهي، والسلوكي.

فإذا ما تم عزله أصبحت قيادته ميسرة، وطيعة للمستعمر، وبالأخص للأجيال التي تنشأ في ظل هذه العزلة.[2]

حيل الاستعمار لفرض العلمانيّة

استخدم الاستعمار حيلاً لفرض العلمانيّة في العالم الإسلامي، منها:

1- تمجيد التقدم العلمي الأوروبي في نظر المسلم، وإبراز خصائص الحضارة الغربية الماديّة أمامه، ممثلة في الصناعة، والرخاء الاقتصادي، وتوفر الخدمات والتوسع فيها: إن في التعليم، أم في الإسكان، أم في سبيل المواصلات العامة، أم في التيسير في التغلب على الصعوبات في الإقامة والسفر على السواء ... وكانت وسيلة الاستعمار في ذلك التمجيد للحضارة الأوروبية هو نقل إنتاجها المادي إلى المجتمعات الإسلامية المستعمرة أو المحتلة في أفريقيا وآسيا، واستخدام هذا الإنتاج في تيسير الحياة فيه والتغلب على صعوبات المشاق التي تصحب عادة الحياة الإنسانية المتخلفة أو البدائية. وذلك ليكون شواهد مادية: ترى وتختبر في التطبيق وفي واقع الحياة.[3]

---

(1) مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، د. أحمد عبد الرحيم السايح، ص 24، 25، مركز الكتاب للنشر، (بدون).

(2) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، د. محمد البهي، ص41.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

2- قام الاستعمار بالتزهيد أو التنفير من تراث الأمة الإسلامية بالتقليل من شأنه، والحط من قيمه، وإبراز عدم فاعليته أو عدم صلاحيته لحياة الإنسان، وحياة المجتمع الإنساني في الوقت الحاضر ... وكان سبيله الإدعاء:

أولاً: بأنّ ما مر في تاريخ الأمة الإسلاميّة يرجع جميعه إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه ذاتها!. وعلى الخصوص ما كان منها ضعيفًا وهزيلاً، في التفكير، وفي التنظيم الإداري والسياسي، وفي الفقه والتشريع. وفي شيوع الفرقة المذهبية والطائفية والشعوبية، والجهل والأمية في قرونه الأخيرة!!

ثانيًا: بأنّ الإسلام نفسه كدين لم يكن وحيًا إلهيًّا، كما لم يكن وضعًا وضعه رسول الإسلام مستقلاً به عن المسيحية!. وإنما كان تلفيقًا منها ومن عقائد أخرى، جعله لا يرتفع به إلى مستوى الإنسانية، وما يجب في علاقات الأفراد ببعضهم من: محبة ومودة، ذلك المستوى التي تؤكده باعتقاد ألوهية عيسى وبأبوة الله له!.

فلم تكن هناك في المسيحية فجوة بين الأب والإله والإبن .. ولم يكن عيسى الإبن والإله: إلا مثلاً للتسامح، والتراحم، والتواد. ولذلك ليس الله بالنسبة للإنسان جبارًا ولا قاصرًا!. وإنما هو عطوف محب. وإنسانيّة الإله، وإلهيّة الإنسان .. تبعد أية صورة من صور القسوة بين الله والإنسان!.

وتبنى ذلك الادعاء علماء اللاهوت المسيحي. وتوفر فريق منهم من الذين يدرسون العبرية: لغة، وتاريخًا، وثقافة، في دراساتهم للكتاب المقدس، على دراسة الإسلام، والمجتمع الإسلامي، والأمة الإسلاميّة والعربية .. بما يجعل هذه الدراسة تعطي النتائج السابقة ولو على حساب المنهج العلمي الذي يدعي سلوكه في هذه الدراسة، وهو منهج الأمانة في النقل والعرض، والفصل والتقييم: بين القرآن والسنة الصحيحة كأصل للإسلام، والتطبيق العملي من جانب المسلمين، لما اشتمل عليها هذا المصدر الأصيل من مبادئ وتعاليم .. هذا التطبيق، الذي هو عرضة للتغيير، والانحراف، والبعد في تصويره للأصل المجمع عليه.

وهكذا كانت الدراسات الإسلامية في بحوث المستشرقين الأوروبيين في المعاهد والجامعات الغربية .. هي دراسات سياسية توجيهية .. استهدفت معاونة الاستعمار، ورجال

الصناعة الغربية، والنظام الرأسمالي الغربي على العموم، في التمكن من فرض التبعية على المسلمين، وبقائهم في رضا أو في استسلام .. دائرة التبعية الأوروبية السياسية، والاقتصادية والتوجيهية.[1]

3- إشاعة النعرات القوميّة؛ فقد نالت القوميّة اللادينية حظًا وفيرًا من عناية الاستعمار، كما لقيت ترحيبًا في القبول من الوطنيين أنفسهم للقيادة في مجتمعاتهم.

أمّا من جانب الاستعمار فلأنّ هذه القومية اللادينية تكاد تكون العنوان البراق والخادع لاتجاه العلمانية. ولأنّ قوتها أو ضعفها سيؤثر إيجابًا أو سلبًا على نفاذ هذا الاتجاه أو عدم نفاذه في علاقات الأفراد بالمجتمع، ثم في علاقات أجزاء الأمّة الإسلاميّة بعضها ببعض.

فطالما تؤكد القومية اللادينية "التراب" في الترابط، وترعاه وحده، دون دين أو لغة لكتابة .. فسينتقل الدين حتمًا، ومعه لغته الفصحى، من مكان الصدارة إلى الخلف ثمّ بتوالي هذا بالتأكيد يدخل الدين رويدًا رويدًا في الماضي القريب، ثمّ بعد ذلك في الماضي البعيد، وهو مجال النسيان للأجيال الناشئة.

وأمّا من جانب الوطنيين فلأنّ هذه "القومية" اللادينية واجهة مميزة لهم عن قوميّة أخرى أو عن واجهة أخرى، ولو كانت هذه الواجهة الثانية لا تختلف عن المضمون الذي عليه الواجهة الأولى، إلا من حيث رقعة المكان الجغرافي. ومن شأن الصفات أو الواجهات المميزة لوجود معين خاص أن تثير اهتمام الذين يعنيهم هذا الوجود الخاص ... ليكون موطن اعتزاز وفخر.

ثمّ من زاوية أخرى تثير "القومية" اللادينية لعاب الوطنيين في بقعة من الأرض محدودة ولو تحديدًا مصطنعًا، لأنّها ستتيح فرصة أوسع لبروز بعض الأفراد في أي مجال من مجالات الحياة، سياسيًا، واقتصاديًا، وفكريًّا، واجتماعيًّا. إذ كلما تعددت القوميات، كلما زاد عدد السياسيين المحترفين في المجتمعات التي تميزت عن طريق القوميّة الخاصة وزاد عدد رجال

(1) المصدر السابق، ص 42، 43.

الفكر، والاقتصاد والمال، في صفوف متساوية في هذه المجتمعات .. لا من حيث جوهر المستوى، ولكن من حيث الشكل والصورة المرئية.

وسيكون من آثار التركيز على هذه القوميات الخاصة صعوبة المحاولة في تجميع المجتمعات المتشابهة في إطار واحد. فالقومية العربية ستصطدم بالقوميّة الليبيّة، والتونسيّة، والجزائريّة، والمغربيّة في شمال أفريقيا، كما تصطدم بالقوميات السوريّة، والعراقيّة، والأردنيّة، والكويتيّة، والسعوديّة، واليمنيّة .. في الشرق، والسودان في الجنوب.

وعمل الاستعمار من أول لحظة على تفتيت الأمة الإسلاميّة إلى "قوميات" تأخذ أسماء الأمكنة الجغرافيّة في آسيا وأفريقيا التي تقيم عليها مجموعات معينة من المسلمين. حتى إذا ما قويت هذه القوميات في شد الوطنيين إليها، أمكن أن يوجه بعضهم ضد بعض .. ويومئذ يكون الإسلام قد تحرك إلى خلف الصفوف، وولى المسلمون عنه الأدبار، وترك لهذه القوميات تأخذ مكانه في الدفع وفي التوجيه في المجتمع .. على نحو ما برز الآن من: القوميّة العربية .. والقوميّة الأفريقية .. والقوميّة الفارسيّة .. والقوميّة الأندونيسيّة .. في مجالات العالم الإسلامي.

ولذا يوم نادى جمال الدين الأفغاني بـ"الجامعة الإسلاميّة" في القرن التاسع عشر عام 1879م، وبعودة الرباط الإسلامي إلى قوته في وحدة المسلمين وجمع كلمتهم ضد الاستعمار الغربي، لم يهاجمه الكتاب الغربيون الذين يعملون في خدمة الاستعمار وحدهم .. وإنما ارتفع ضده في قوة: صوت "النعرة القوميّة" اللادينية في أجزاء عديدة من وطن الأمة الإسلامية ...

ونداء جمال الدين الأفغاني إلى "الجامعة الإسلاميّة" .. يدل على وجود حقيقي "للقوميّة" العلمانيّة على أرض الأمة الإسلاميّة .. كما يدل على بداية الصراع بين الإسلام والعلمانية الغربيّة في صورتها التي تعبر عنها وهي صورة القومية اللادينيّة. ولكنّه لم يكن صراعًا أيديووجيًا متكافئًا، رغم أنّ الإسلام هو العقيدة الأصلية للمسلمين: لها قوتها في الدفع والتماسك، ورغم أنّه نفسه نظام للحياة: لا يجعل فيها انقسامًا بين قوة روحية وأخرى زمنيّة، ولا انفصالاً في الإنسان بين روحه وبدنه.

ثمّ بالإضافة إلى ذلك: أنّ العلمانيّة الغربيّة أمرها طارئ ودخيل على المجتمع الإسلامي، وكان يجب أن تكون مكروهة لكراهة الاستعمار نفسه. ومن أجل ذلك كان يجب أن تكون كفة الإسلام راجحة في الصراع!.

ولكن الإسلام نفسه كان ضعيفًا في الإيمان به من المسلمين قبل الغزو الغربي وفرض سلطان الاستعمار على أجزاء عديدة من أرض الأمة الإسلامية، ولذا قبل المسلمون ولاية الأجنبي عليهم في غير صعوبة تذكر، في طريق استيلائه عليهم. نعم كان هناك بعض أساليب الخداع من الاستعمار في الاستيلاء على السلطة. ولكن ذلك لا يمنع من وجود هذه الحقيقة في المجتمع الإسلامي، وهي: ضعف الإيمان بالإسلام بين المسلمين.[1]

جلاء الاستعمار والعلمانيّة

بذل المسلمون الغالي والنفيس وجاهدوا المحتل الذي خرّب ديارهم واستغل ثروتهم (في غير شفقة منه، وفي غير حياء وخجل في أسلوبه، وفي وحشية الحيوان الشره في التهامه .. من كفر بالقيم الإنسانيّة وبمبادئ الدين، ومن ظلم في إزهاق أرواح الناس بالباطل، ومن الاعتداء على الكرامات والحرمات الفردية والجماعية، التي طالب الإسلام بمنعها وردها إن وقعت في غير حدود للتضحية بالنفس والمال والولد في سبيل إزالتها.

وكان لعلماء المسلمين، ولطلاب العلم الإسلامي في المعاهد الدينيّة، والمساجد، دور القيادة في استنكار الاستعمار وفي مقاومته بين المواطنين، في أي مجتمع إسلامي شيوخًا وشبانًا، وعمالاً وموظفين. وكانت المساجد هي الساحات والأندية التي تتجمع فيها القوى الوطنية لتنظيم التعبير عن مطالبة الاستعمار بالجلاء، وبترك البلاد مستقلة عن نفوذه.

وكان القرآن وآياته .. هو مصدر الإلهام والحماس وإثارة العواطف ضد الغزاة المستعمرين.

وعندما انتقم الاستعمار من الوطنيين، بسبب استنكارهم لوجوده على رؤوسهم ومطالبتهم إياه بالرحيل .. انتقم أولاً من أولئكم الذين يحملون رأي الإسلام ويعرفون

(1) المصدر السابق، ص44-46.

بالإنتساب إليه في صفوف الشعب، وهم العلماء والطلاب في المعاهد الدينية: إنْ في الحجز في المعتقلات لفترة أو فترات، تطول وتقصر، وإنْ في تعذيب، وإنْ في تفويت كثير من المصالح الشخصية عليهم.

ولكنّ هذه العاطفة الدينيّة الشعبيّة في الترابط التي ظهرت قوية في مقاومة الاستعمار وفي استنكار وجوده .. كانت عاطفة مؤقتة، لم تستند إلى تخطيط منظم قائم بالفعل في صراع الإسلام ضد العلمانيّة الغربيّة، وضد من يحملها ويعمل على تمكينها من المستعمرين الغربيين في المجتمع الإسلامي. وإنما كانت كعاصفة من الرياح هبت في غير الإتجاه الأصيل لطبيعة المناخ، وتسببت عن تغير طارئ في الجو، تزول بزوال سببه.

لأنّ الضعف الفكري الإسلامي لم يتراجع في خط انحداره، ولم تقم بعد: حركة إحياء لمبادئ الإسلام في المجتمع الإسلامي، تستطيع أن تقف في ثبات .. في وجه الضغط القومي العلماني.

فكل ما كان في حصيلة الفكر الإسلامي آنئذ .. هو تفسيرات للإسلام ولنظامه، تحمل على العزلة عن الحياة وأحداثها، وتدور في فلك الافتراض إن أرادت أن تمد لنفسها الزمن في التفكير، أو تبقى في مرحلة مرت على الأمة الإسلامية، وليست ذات اتصال وثيق بماضيها الأمجد البعيد ولا بكاشفة للغد القريب.

وتلك حصيلة من المعرفة إن شاركت في إلهاب الحماس الوطني المؤقت ضد الاستعمار .. لا تضيء الشعلة لاكتشاف قيمة الإسلام في حقيقة أمره في بناء المجتمع وتماسكه، ولا لكشف القناع من جانب آخر عن العلمانية الغربية وما ترمي إليه في تقويض الإسلام وتفتيت الأمة الإسلامية.

ومن أجل ذلك لم يلبث أن ظهر من جديد نفوذ العلمانيّة الغربيّة في المجتمع الإسلامي .. أثر الإستقلال السياسي، وقيام الحكم الوطني، وبعد أن هدأت العاصفة الحماسية للعاطفة الدينية التي هبت مطالبة به في وجه الاستعمار ... وساعدت عودة العلمانيّة الغربية إلى قوتها ونفوذها في المجتمع الإسلامي بعد استقلاله السياسي .. طبيعة الحكم الوطني فيه.

فقد سلم المستعمر الحكم في المجتمع الإسلامي، قبيل الاستقلال وعلى أثر إعلانه، لفريق من الوطنيين، هم أقرب إلى اتجاهه، سواء بحكم ميولهم وتنشئتهم التي نشأوا عليها في المدارس والمعاهد، ذات الاتجاه العلماني، أو بحكم المصالح المشتركة بين المستعمرين السابقين. وهي مصالح تستهدف استمرار تحقيق غايات الرأسمالية الأوروبية في الاقتصاد القومي للمجتمع، وفي الوقت نفسه .. تستهدف تحقيق منافع شخصية لأصحاب الحكم الوطني: من مال .. أو .. سلطة .. أو جاه.

يضاف إلى ذلك: أن النظام السياسي للديمقراطية الغربيّة، وهو نظام يعتمد على تعدد الأحزاب السياسيّة .. أوجد تنافسًا بين الوطنيين بعد الاستقلال في التطلع إلى الحكم واعتزاز بجاهه، والانتفاع بنفوذه. ومن شأن هذا التنافس أن يجر إلى نتيجتين حتميتين:

أولاهما: الصراع الحزبي، والتقاتل في سبيل الوصول إلى الحكم.

وثانيهما: عدم التشدد في المصالح الوطنيّة الحقيقيّة، احتفاظًا بعلاقة طيبة مع صاحب النفوذ الفعلي في المجتمع، وهو في التحليل الأخير .. يرجع إلى رجال الصناعة والمال في أوروبا وأمريكا. ويمثلهم في المجتمع الإسلامي بعد الاستقلال .. سفراء الدول الغربية، ومندوبو الشركات الصناعيّة، والتجاريّة، والماليّة .. من الوطنيين والأجانب على السواء.

ومن ثمّ يكون الحكم الوطني، بعد الاستقلال، عنوانًا ليس له مدلول واقعي. وهو واجهة وشعار أكثر منه حقيقة موجودة .. ويكون رجال الحكم الوطني بعد الاستقلال أكثر الوطنيين ضعفًا، لأنّ لهم مصالح شخصيّة وراء الحكم، ولا يباشرونه إلا بقدر ما يحققون هذه المصالح لأنفسهم. فإن تعارضت مصالحهم الشخصية مع المصالح العامة الوطنية .. ضحوا بهذه الأخيرة في سبيل تحقيق ما لهم هم ...

ويبدو ضعف رجال الحكم الوطني بعد الاستقلال على أشده، عندما تطلب الأمّة العودة إلى تراث المجتمع الروحي والثقافي، وقيمه وتقاليده في: التوجيه، والتشريع، والتعليم .. يبدو ضعفهم على أشده عندما تطلب الأمة إحلال الإسلام في التوجيه، وإحلال لغته العربية الفصحى في البلاد التي تتكلمها في التعبير والحديث والتسجيل في الدواوين، محل

العلمانيّة الغربيّة، أو محل اللغة الأجنبيّة أو اللهجة المحليّة، أو عندما تطلب إدخال الدين، كمقوم أساسي ضمن مقومات "القوميّة".

وتشتد جرأتهم على الإسلام، أكثر من جرأة رجال العلمانيّة الغربيّة يوم دخلت المجتمع الإسلامي مع الاستعمار الغربي، وحاولت طرده وإبعاده منه .. تشتد جرأتهم عليه في غير فهم لمبادئه وفي غير اكتراث لإيمان المواطنين به.

ويوصف المطالبون بالإسلام، على عهد الحكم الوطني بعد الاستقلال في التوجيه والتشريع، والتعليم، بالتزمت أو التخلف، تنفيرا لمن يتبعهم من الاستمرار في تبعيته إياهم

ومن هنا: يستمر الحكم الوطني في أي مجتمع إسلامي بعد استقلاله، في اتجاه العلمانيّة الغربيّة التي تبلورت: في القومية اللا إسلامية، وفي النظام الحزبي الديمقراطي، وفي الاقتصاد الرأسمالي، وفي التشريع اللا وطني أو الغربي، وفي التوجيه الفردي الحر المطلق.

ويتميز هذا الحكم الوطني بعد الاستقلال عن حكم ما قبل الاستقلال .. بالمعارضة الواضحة للإسلام ولتوجيهه، وباستهجان إقامة حكم سياسي وإداري على أساس إسلامي، وبالغلو في التمكين لطريق العلمانيّة، وفي السخرية في كثير من الأحيان بالقيم الإسلاميّة، وبالفجور في الانحراف عن الحكم الإسلامي.[1]

ثالثًا: مراحل العلمانية فى العالم الإسلامى

يقول الدكتور فؤاد زكريا[2]: (لا بدّ لنا، لكي نوضح سمات العلمانيّة في بلادنا من أن نميز بين مرحلتين في عالمنا العربي الحديث.

الأولى: هي العلمانية التي ظهرت في زمن الصدمة الحضاريّة مع الغرب.

---

(1) المصدر السابق، ص49-52.

(2) ولد فؤاد زكريا عام 1927م، وهو أكاديمي وأستاذ جامعي مصري متخصص في الفلسفة. تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة عام 1949. نال الماجستير عام 1952م، والدكتوراه عام 1956 في الفلسفة من جامعة عين شمس، كان علمانيًا متعصبًا وهو صاحب مقال (العلمانيّة هي الحل) ردًا على دعوة (الإسلام هو الحل) من مؤلفاته: نيتشه، 1956،= =نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، اسبينوزا، الإنسان والحضارة، التعبير الموسيقي، مشكلات الفكر والثقافة، دراسة لجمهورية أفلاطون، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، خطاب إلى العقل العربي، الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، آفاق الفلسفة، الثقافة العربية وأزمة الخليج.

والثانية: هي علمانيّة العصر الحاضر أعني الربع الأخير من القرن العشرين).[1]

فالمرحلة الأولى من مراحل العلمانيّة: هي التي أعد لها محمد علي، يقول الدكتور فؤاد زكريا: (يعد محمد علي أول علماني حقيقي في العالم العربي الحديث، وصاحب أوّل مشروع متكامل للنهضة كان قوامه التحديث الشامل على النمط الأوروبي، وكلّ ما في الأمر أنّ علمانيته كانت تتمثل في ميدان الممارسة أي في مجالات كالسياسة والاقتصاد والتعليم، ولم يكن يساندها فكر واع، وإنّما احتاج هذا الفكر إلى ما يقرب من قرن لكي يتبلور عند مجموعة المفكرين)[2]، وفي هذه المرحلة أُبعد الإسلام عن تطبيق الشريعة، واستوردت القوانيين الوضعية.

والمرحلة الثانية من مراحل العلمانية في العالم الإسلامي: وفيها (تمت مراجعة مفهوم العلمانيّة في العالم العربي)[3] واتخذت موقفًا من الدين وانقسم العلمانيون إلى معتدلين ومتطرفين كما يسميهم الأستاذ فهمي هويدي.[4]

ويعرف هويدي المتطرفين: بأنّهم ليسوا ضد الشريعة وحسب، بل ضد العقيدة أيضًا، ولذلك فهم يعتبرون الإسلام مشكلة يجب حلها بالإنتهاء منها، وتجفيف منابعها.

أمّا المعتدلون: فليست لديهم مشكلة مع العقيدة فهم يعتبرون أنّ الدين والإسلاميين (حالة) يمكن التعايش معها، إذا ما أقيم حاجز بين الدين والسياسة للحيلولة دون ما يتصورونه سلطة دينيّة).[5]

---

(1) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، د. فؤاد زكريا، ص47، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الأولى 1989م.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(3) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د.عبد الوهاب المسيري ج1 ص 110، دار الشروق الأولى 2005م.

(4) فهمي هويدي كاتب ومفكر مصري معروف من مواليد عام 1937م، تأثر بالشيخ محمد الغزالي رحمه الله وبالدكتور يوسف القرضاوي كما يقول هو ذلك، من مؤلفاته: المفترون خطاب التطرف العلماني في الميزان، وحدث في أفغانستان، وتزييف الوعي ؛ وغيرها من الكتب.

(5) المصدر السابق، ج1 ص 122، 123.

ويضيف الدكتور عبد الوهاب المسيري[1] رحمه الله قسمًا ثالثًا: وهي العلمانية المتأرجحة بين المعتدلة والمتطرفة أو الجزئيّة والشاملة كما يسميها هو.[2]

والحق أنّه لا تأرجح، فهي إمّا علمانية جزئيّة وإمّا شاملة ولا ثالث بينهما، والفرق بين العلمانيتين:

أنّ الأولى: إبعاد للدين عن مجالات الحياة، والثانية: إلغاء للدين وهدمه.

(1) أستاذ جامعي مصري وهو أحد أبرز المفكرين الذين حاربوا الصهيونية ولد في 8 أكتوبر 1938م وتوفي في 3 يوليو 2008م، ومن أبرز مؤلفاته: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية في ثمانية أجزاء.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 72.

المبحث الثاني

د. محمد أركون ود. نصر حامد أبو زيد والعلمانية.

المطلب الأول: د. محمد أركون ود. نصر حامد أبو زيد ومنزلتهما عند العلمانيين.

أولاً: د. محمد أركون ومنزلته عند العلمانيين

ترجمة د. محمد أركون

هو مفكر علماني جزائري ولد في بلدة توريرة ميمون بمنطقة القبائل الكبرى بالجزائر عام 1928م.

قضى فترة الدراسة الابتدائية في توريرة ميمون والثانوية في وهران. والدراسة الجامعيّة بكليّة الفلسفة في الجزائر ثمّ في السوربون في باريس.

ودرس اللغة العربية والأدب في باريس سنة 1956م. و حصل على دكتوراة في الفلسفة من جامعة السوربون سنة 1968م. ومن 1968م -1991م كان أستاذًا جامعيًّا في جامعة السوربون. وعمل أستاذًا زائرًا في:

1. برلين من عام 1977م إلى عام 1979م.
2. كما عمل أستاذًا في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون من عام 1992م إلى عام 1993م.
3. وعمل أستاذًا زائرًا في جامعة: لوس أنجيلوس عام 1969م.
4. وعمل أستاذًا في جامعة برنستون 1985م.
5. وعمل أستاذًا في جامعة لوفان لانيف من عام 1977م إلى عام 1979م.
6. وعمل أستاذًا في جامعة فيلاديلفيا من عام 1988م إلى عام 1990م.
7. وعمل أستاذًا في جامعة أمستردام من عام 1991م إلى عام 1993م.
8. وعمل أستاذًا في جامعة نيويورك لشهري مارس وأبريل في سنة 2001م وسنة 2003م.

9. وعمل أستاذًا في جامعة أدنبرة **Gifford Lectures** نوفمبر 2001م.

10. ومنذ سنة 2000م مستشارًا علميًّا للدراسات الإسلاميّة في مكتبة الكونجرس في واشنطن العاصمة.

11. ومن ضمن وظائفه أنّه عمل عضوًا في لجنة العلمنة في فرنسا.

النشاط الحالي:[1]

يعمل أستاذًا متقاعدًا في السوربون، وأستاذًا زائرًا وعضوًا في مجلس إدارة معاهد الدراسات الإسلاميّة في لندن منذ 1993م. والمدير العلمي لمجلة **Arabica** منذ سنة 1980م.[2]

مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات التي كتبت بالفرنسيّة وترجمت إلى العربية، والجدير بالذكر أنّه لا يكتب بالعربيّة وإنّما يكتب بالفرنسية، وتترجم أعماله إلى العربيّة تحت إشرافه مباشرة، وأعماله التي ترجمت إلى العربيّة واستفاد منها الباحث هي:

1- الفكر العربي: ترجمة د. عادل العوّا. دار عويدات .بيروت .سلسلة زدني علمًا 1979م.

2- تاريخيّة الفكر العربي الإسلامي: ترجمة هاشم صالح. مركز الإنماء القومي .بيروت 1986م.

3- الفكر الإسلامي: قراءة علمية. ترجمة هاشم صالح. مركز الإنماء القومي .بيروت 1987م.

4- الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد: ترجمة هاشم صالح. دار الساقي .بيروت 1995م. والمؤسسة الوطنية للكتاب (بدون).

---

(1) توفي أركون في ١٤ سبتمبر، ٢٠١٠م، بعد مناقشة هذه الرسالة العلميّة.

(2) هذه الترجمة مستفادة من موقع ابن رشد للفكر الحر على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وهذه الترجمة بمناسبة منح محمد أركون جائزة ابن رشد للفكر الحر عام 2003م وعنوان الموقع هو: www.ibn-rushd.org

5- من فيصل التفرقة إلى فصل المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1993م.

6- الإسلام، أوروبا، الغرب: ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1995م.

7- الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1999م.

8- نزعة الأَنْسَنَة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي: ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1997م وهو رسالته للدكتوراة.

9- من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي: ترجمة هاشم صالح. دار الساقي. بيروت 1991م.

10- قضايا في نقد العقل الديني: ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت 1998م.

11- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني: ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت 2001م.

12- العلمنة والدين، دار الساقي.

13- من منهاتن إلى بغداد ما وراء الخير والشر.

منزلة د. محمد أركون عند العلمانيين

من ترجمة أركون نستنتج المكانة المرموقة التي حظي بها عند الأوربيين، وهو نفسه يسجل هذا في كتبه فيقول: (يقولون لي مستغربين أو مدهوشين: كيف يمكن لشخص مسلم مثلك أن يتحدث بهذه الطريقة؟! يا له من شيء رائع وباعث على الأمل أن نسمع مسلمًا

ليبراليًّا[1] أو متحررًا مثلك).[2]

ويحظى أركون أيضا بمكانة مرموقة بين العلمانيين العرب.

يقول د. علي حرب[3] (محمد أركون مفكر عربي بات غنيًّا عن التعريف لدى المعنيين بشئون الفكر والدراسات التراثيّة في العالم العربي، وهو يعد اليوم من أبرز المشتغلين في ميدان الإسلاميّات، ومن أنشطهم بحثًا وتأليفًا، والجدير بالذكر أنّ هذا الجزائري البحاثة يقيم في باريس ويعمل أستاذًا لتاريخ الفكر الإسلامي في جامعة السوربون).[4]

ولمكانته العالية عند العلمانيين يلقبه بعضهم بالمفكر الإسلامي[5]، وكثيرًا ما نجد العلمانيين يستشهدون بنصوصه في كتبهم ومحافلهم.

ثانيًا: د. نصر حامد أبو زيد ومنزلته عند العلمانيين

ترجمة د. نصر حامد أبو زيد:

ولد د. نصر حامد أبو زيد في قرية (قحافة) إحدى القرى الملاصقة لمدينة (طنطا) في محافظة الغربية، إحدى محافظات مصر في العاشر من يوليو عام 1943م.[6]

حصل على دبلوم المدارس الثانوية الصناعية قسم اللاسلكي سنة 1960م، والتحق بالعمل بهيئة المواصلات اللاسلكية بدءًا من شهر فبراير 1961م، وحصل على الثانويّة

---

(1) الليبرالية هي مذهب رأسمالي ينادي بالحرية المطلقة في الميدانين الإقتصادي والسياسي، ففي الميدان السياسي وعلى النطاق الفردي يؤكد هذا المذهب على القبول بأفكار الغير وأفعاله حتى ولو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله شرط المعاملة بالمثل. وعلى النطاق الجماعي فإنّ الليبراليّة هي النظام السياسي المبني على التعدديّة الأيديولوجيّة والتنظيمية الحزبية والنقابية التي لا يضمنها، حسب ذلك المذهب، سوى النظام البرلماني الديمقراطي الذي= =يفصل فعليًّا بين السلطات الثلاث: التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة، ويؤمن الحريات الشخصية والعامة بما في ذلك حرية المعتقد الديني. (الموسوعة السياسية، الدكتور عبد الوهاب الكيالي وآخرون، ج5، ص 566، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الرابعة 1999م).

(2) قضايا في نقد العقل الديني، د. محمد أركون ص 22 ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة بيروت 1998م.

(3) كاتب ومفكر علماني لبناني، له العديد من المؤلفات منها: كتاب نقد النص وهكذا أقرأ ما بعد التفكيك.

(4) نقد النص، د. علي حرب، ص 61 المركز الثقافي العربي، الرابعة 2005م.

(5) كالدكتور مراد وهبة، في كتابه الأصولية والعلمانية، ص 62، دار الثقافة.

(6) الخطاب والتأويل، د. نصر حامد أبو زيد، ص 214، المركز الثقافي العربي، الثانية 2005م.

العامة من الخارج عام 1968م، والتحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وتخرج منها عام 1972م، وعين معيدًا في شهر أكتوبر 1972م.[1]

وعين مدرسًا مساعدًا بنفس القسم والكليّة عام 1976م، ثمّ مدرسًا بنفس القسم والكليّة عام 1982م، ثمّ أستاذًا مساعدًا بنفس القسم والكليّة عام 1987م، ثمّ رقي أستاذًا بنفس القسم والكليّة عام 1995م، بعد ضجة إعلامية كبيرة وهي معروفة مشهورة[2] وفحواها، رفض ترقيته في الجامعة لضعف إنتاجه العلمي، وانتهت بحكم محكمة الاستئناف عام 1995م عليه بالردة، والتفريق بينه وبين زوجته وعلى إثرها سافر إلى هولندا.

النشاط الحالي:[3]

يعمل أستاذًا زائرًا بجامعة ليدن بهولندا بدءًا من أكتوبر 1995م.[4]

مؤلفاته

1- الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1996م وهو رسالته للماجستير.

2- فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، 1996م وهو رسالته للدكتوراة.

3- مفهوم النص؛ دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط3، 1996م.

4- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1995م.

---

(1) المصدر السابق، ص 217.

(2) يراجع كتاب الحق في التعبير، للدكتور محمد سليم العوا، دار الشروق، وقصة أبو زيد وانحسار العلمانية في جامعة القاهرة، للدكتور عبد الصبور شاهين دار الإعتصام.

(3) توفي نصر حامد أبو زيد في 5 يوليو، ٢٠١٠م، بعد مناقشة هذه الرسالة العلميّة.

(4) راجع موقع ابن رشد للفكر الحر على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وقد منح جائزة ابن رشد للفكر الحر عام 2005م. وعنوانه: www.ibn-rushd.org

5- الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، مكتبة مدبولي بالقاهرة 1996م.
6- نقد الخطاب الديني، دار سينا بالقاهرة، 1994م.
7- التفكير في زمن التكفير، مكتبة مدبولى بالقاهرة، 1995م.
8- النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 1997م.
9- دوائر الخوف: دراسة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، بيروت.
10- الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، 2000م.
11- هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، 2002م، والمركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء 2004م.

منزلة د. نصر حامد أبو زيد عند العلمانيين:

عرف د. نصر- حامد أبو زيد في الوسط العلماني قبل الضجة الإعلاميّة الكبيرة التي أثيرت حوله، فقد قدمه الأستاذ محمود أمين العالم[1] للدكتور محمد عمارة[2]، وقال له: هو (أحسن من يحلل النص)[3]، وبعد الضجة الإعلامية عرف د. نصر- حامد أبو زيد للخواص والعوام على السويّة، فقد أقام ويقيم العلمانيون كل يوم مأتمًا وعويلاً على الحريّة المقيدة في

(1) مفكر يساري، وأحد أقطاب حركة اليسار في مصر- ولد في 18 فبراير 1922م، وتوفي في 10 يناير 2009م.

(2) الدكتور محمد عمارة مصطفى عمارة 8 ديسمبر 1931م، مفكر إسلامي، مؤلف ومحقق وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر القاهرة. ولد بريف مصر- مركز قلين- كفر الشيخ في 1931/12/8، حفظ القرآن وجوده وهو في كتاب القرية. بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية وهو صغير. وكان أول مقال نشرته له صحيفة (مصر الفتاة) بعنوان (جهاد عن فلسطين). وقد درس الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية كلية دار العلوم .جامعة القاهرة 1965م. والماجستير في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية. كلية دار العلوم.= =جامعة القاهرة 1970م والدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية. كلية دار العلوم. جامعة القاهرة 1975. (عن موقعه على الإنترنت www.dr-emara.com).

(3) انظر: التفسير الماركسي للإسلام، د. محمد عمارة ص 6 دار الشروق، الثانية 2002م.

شخص نصر حامد أبو زيد ومن ذلك على سبيل المثال يقول سيد القمني[1]: (فالقضيّة – أي قضية نصر حامد أبو زيد – أكبر من ترقية أستاذ؛ إنّها منطق الإرهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر).[2]

ويقول أحمد صبحي منصور[3]: (ودعاة الدولة الدينية يلتقون مع الاستبداد العسكري في رفض الرأي الآخر وكلاهما يؤمن بالرأي الواحد، ونحن ضحية الاثنين معًا، ولم تعد حرية الفكر مجرد مطلب ترفي للمثقفين، وإنّما أصبحت العلاج الوحيد لمواجهة دعاة التطرف والإرهاب).[4]

وفي ندوة أقامها حزب التجمع المصري[5] حول الجامعة المصريّة وحريّة البحث العلمي، وكان المحاضرون فيها: د. صلاح العقاد[6] ود. يونان لبيب رزق[7] ود. أحمد صبحي منصور ود. نصر حامد أبو زيد، أعلن هؤلاء المحاضرون أنّ جامعة القاهرة في قضية د. نصر حامد أبو زيد تخضع لمحاكم التفتيش الكهنوتية.

---

(1) علماني مصري من مواليد 13 مارس 1947م بمدينة الواسطى في محافظة بني سويف.

(2) مجلة أدب ونقد عدد مايو 1993م، ص 18، مقال بعنوان كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع، للسيد القمني.

(3) من مواليد 1949م وهو مدرس مفصول من جامعة الأزهر بسبب إنكاره للسنة النبويّة المطهرة وهو زعيم طائفة القرآنيين.

(4) المصدر السابق، ص 20 مقال بعنوان إلى متى؟ أحمد صبحي منصور.

(5) حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، هو أحد الأحزاب اليسارية المصرية، وهو حزب معادي للحركة الإسلامية، علماني الوجهة، تأسس الحزب مع إعادة تأسيس الأحزاب في مصر. وحل الاتحاد الاشتراكي العربي الذي كان يمثل الحزب السياسي الوحيد في مصر. سنة 1976م. يرأسه حاليًا رفعت السعيد بعد رئاسة خالد محيي الدين الزعيم التاريخي للحزب كما يطلقون عليه.

(6) ليبرالي مصري من مؤلفاته: التيارات السياسية في الخليج العربي والشرق العربي المعاصر. دراسة تاريخية سياسية والمغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر والسياسة والمجتمع في المغرب العربي.

(7) ولد في 27 أكتوبر 1933م وتوفي في 15 يناير 2008م كان رئيسًا لقسم التاريخ الحديث في كلية الآداب بجامعة عين شمس.

ويقول في هذه الندوة الدكتور يونان لبيب رزق: (إنّ د. نصر حامد أبو زيد دخل التاريخ من أوسع أبوابه) وأكد على أنّه في اجتماع اللجان العلميّة لا يتم ترقية فرد أو اثنين ولم يحدث أي شيء، ولكن في قضية د. نصر. الأمر مختلف، لم يحصل على درجة الأستاذيّة غير أنّه حصل على المجد).[1]

ويصفه أحدهم بالشهيد الحي فيقول: (ليس من قبيل المبالغة إطلاق اسم "الشهيد الحي" على الكاتب المصري نصر حامد أبو زيد. دفع أبو زيد ثمنًا غاليًا لدراساته حول النص الديني من خلال اعتماد منطق ومنهج وتوجه مخالف للتقليد السائد. "أقيمت الدنيا عليه ولم تقعد" حتى الآن، وسخّر القضاء المصريّ نفسه في تلفيق التهم بالردّة والإلحاد ضدّه فأصدر قرارًا تعسّفيًا بتفريقه عن زوجته).[2]

وليوم الناس هذا كثيرا ما يذكر د. نصر. حامد أبو زيد في المحافل العلمانيّة، ولا أبالغ إذا قلت: إنّه الآن يمثل في الوجدان العلمانيّ العالم المضطهد.

(1) المصدر السابق، ص 100، 101.

(2) نصر. حامد أبو زيد: محنة التفكير في زمن التكفير والتحريم، خالد غزال، جريدة الأوان الإلكترونية، وعنوانها على الإنترنت http://www.alawan.org/

المطلب الثاني: مفهوم العلمانيّة

أولاً: العلمانيّة في المعاجم العربيّة

هناك اتجاهان أساسيان في ضبط الكلمة، هل هي من العلم أو من العالم وعليه فتنطق بكسر العين أو بفتحها؟

استدل القائلون بأنّها مشتقة من العلم؛ بأنّها لو كانت مشتقة من العالم (لكانت النسبة الصحيحة هي "العالميّة" وليست هناك ضرورة لغويّة، أو حتى أدنى مسوغ لغوي لأن تحل العلمانيّة بفتح العين محل العالميّة، فالعالميّة نسبة مألوفة وهي أخف من العلمانيّة، فلماذا حلت تلك النسبة الغريبة الثقيلة محل النسبة الخفيفة؟)[1]

واستدل القائلون بأنّها مشتقة من العالم بالآتي:

أنّ الترجمة الصحيحة للكلمة تدل على أنّها مشتقة من العالم وليس من العلم (فلفظ العلمانيّة ترجمة خاطئة لكلمة (**Secularism**) في الإنجليزيّة، أو (**secularity**) بالفرنسيّة وهي كلمة لا صلة لها بلفظ "العلم" ومشتقاته على الإطلاق.

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه (**Science**)، والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة (**Scientism**) والنسبة إلى العلم هي (**Scientific**) أو (**Scientifique**) في الفرنسيّة.

والترجمة الصحيحة للكلمة هي (اللادينية) أو (الدنيوية) لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد).[2]

ومما يدل على أنّها من العالم وليست من العلم أنّه (لم ترد كلمة علماني بحروفها من معجم عربي قديم أو حديث قبل المعجم الوسيط قال: "والعلماني نسبة إلى العَلم؛ بمعنى العالم وهو خلاف الديني والكهنوتي"[3]).[4]

---

(1) الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة، د. عبد العظيم المطعني ص 129.

(2) العلمانية، د. سفر الحوالي ص 21.

(3) المعجم الوسيط، ج2 ص 624.

(4) علماني وعلمانية تأصيل معجمي، د. السيد أحمد فرج، منشور ضمن كتاب جذور العلمانية، د. السيد أحمد فرج، ص 123، دار الوفاء، الرابعة 1990م.

وقد جاء ذلك في طبعتيه الأولتين قبل التعديل في طبعته الثالثة[1]، وقد سبق المعجم الوسيط بعض المعاجم ثنائية اللغة فذكرت كلمة علماني وعلمانيّة نسبة إلى العالم، وأول هذه المعاجم معجم ألفه "إلياس بقطر المصري"[2] عام 1838م وقد وردت كلمة علماني في معجمه ترجمة لكلمة (laique) الفرنسيّة.[3]

وهذه الترجمة تكتسب أهميتها لأن "بقطر" ينتمي إلى جيل الحملة الفرنسيّة، وعمل مترجما للفرنسيين، وسافر إلى فرنسا، وفضل هذا المترجم يرجع إلى أنّه أوّل من وضع المصطلح العربي الحديث للعلماني والعلمانيّة منسوبًا إلى العالم في معجم ثنائي اللغة (فرنسي-عربي) وكتبه عالماني وعالمانيّة مرتين، وعلماني مرة واحدة بفتح العين جميعًا.[4]

أمّا تحليل تحول كلمة عَالم إلى عَلْم، فهو أنّه لمّا صيغ من الكلمة المصدر الصناعي توالت في نطقها ثلاث فتحات وكسرة، ومجموعها ست حركات، والعربية تكره تتابع الحركات، وتلجأ دائمًا إلى التخفيف منه؛ فإن كانت أربعًا جعلتها ثلاثًا كما في إسناد الماضي إلى الضمير المتحرك، وإن كانت ثلاثًا جعلتها ثنتين كما في ظاهرة إسكان عين الثلاثي، فإذا كان هذا هو شأن العربيّة في أربع حركات متواليات فكيف إذا كانت ستًا؟[5]

---

(1) قصة دخول العلمانية في المعجم العربي، د. عدنان الخطيب، منشور ضمن كتاب جذور العلمانية، ص166.

(2) مصري قبطي مات بباريس عام1821م، كان من أعضاء المجمع العلمي المصري الذي أنشأه الفرنسيون أيام احتلالهم مصر. وخدم جيشهم بالترجمة. وسافر معهم عند رحيلهم، فعين بباريس مدرسا للعربية في المكتبة الملكية Bibliothegue de Roy وصنف (قاموس بقطر) عربي فرنسي، مجلدان. وله (مختصر في الصرف) لتعليم التلاميذ بمدرسة اللغات الشرقية في باريس (الأعلام للزركلي، ج،2 ص 9).

(3) علماني وعلمانية تأصيل معجمي، ص 133.

(4) المصدر السابق ص 138.

(5) العلمانية تاريخ الكلمة وصيغتها، د. عبد الصبور شاهين، منشور ضمن كتاب جذور العلمانية، ص 125.

وقد نسب العلماني إلى العالم للمبالغة في الإيمان بالعالم، ولتخصيص بكمال هذه الصفة كما جاء في الرباني، فتكون الألف والنون إلى العالم للمبالغة في الانتماء إليه دون الانتماء إلى خالق العالم، بصياغة المصدر الصناعي من كلمة العالم بعد حذف الألف ونطقها "عَلْم" بفتح وسكون، والعربية تتسع لذلك، فهي تميل للتخفيف في النطق إذا توالت الحركات في الكلمة الواحدة، فصاغت علماني من عالماني كما يقال طلقاني من طالقاني نسبة إلى طالقان.[1]

وقد ناقشت لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية[2] بحثي الدكتورين عبد الصبور شاهين وعدنان الخطيب عن أصل كلمة العلمانيّة ونطقها بالفتح، وانتهت إلى الانتماء إلى العالم دون انتماء إلى العلم بكسر العين.[3]

مما يعتبر هذا حسمًا للخلاف، وعليه فالعلمانية لا تنسب إلى العلم بالكسر، وكلّ من نسبها إلى العلم فقد أخطأ، وخطؤه معذور[4]؛ لأنّه نظر إلى العلم بمعناه الغربي، الذي هو مقابل الدين، وفي تضاد مع الدين، فلا يجتمعان ويفترقان دائمًا، ونظر أيضًا إلى السياق التاريخي لظهور العلمانية في الغرب، يقول الدكتور يحيى هاشم فرغل: (هذا ولما كانت العلمانية بمفهوم الاستبعاد أو بمفهوم الإسقاط، تنفي الدين في مجال التأثير في توجيه شئون الحياة، فإنّها بحسب الظروف والدعاوى التي نشأت في ظلها تستدعي العلم ليقوم بهذا التأثير، وهذا هو عذر المخطئين في الخلط بين مفهوم العلمانية ومفهوم العلم).[5]

---

(1) علماني وعلمانية، تأصيل معجمي ص 144.

(2) تأسس مجمع اللغة العربية في القاهرة في 14 شعبان سنة 1351هـ الموافق 13 ديسمبر 1932م في عهد الملك فؤاد وبدأ العمل فيه سنة 1934م.

(3) جذور العلمانية، د. السيد فرج ص 6.

(4) حقيقة العلمانية، د. يحيى هاشم فرغل، ص 7.

(5) المصدر السابق، ص 8.

ثانيًا: العلمانيّة كمصطلح غربي

يدور مصطلح العلمانيّة في المعاجم الأوروبيّة حتى نهاية القرن التاسع عشر حول المعاني الآتية:

1- الذي يأتي مرّة كلّ قرن.

2- المنتسبون إلى العالم الأرضي **mondana** (دنيويون)، وهم طائفة من الإكليروس[1] ورجال الكهنوت.

3- يحتفل بمرور المائة عام (القرن الزمني).

4- أجناس شتى من عالم البشر[2].

ثمّ تطورت معاني (علماني وعلمانية) مع تطور الحياة عندهم، واستخدمت في المعاجم الحديثة على الوجه الآتي:

1- جاء في معجم ويبستر:

علماني **secular** = دنيوي، أو لا ديني **pagan** ومن معانيها الشيء الذي يحدث مرّة واحدة في عصره أو جيل، أو شيء وثيق الارتباط بعصره، وأشهر معانيه الآن: الأمور الدنيوية المتمايزة عن الأشياء الروحية غير العقديّة، وغير التي لها صفة الخلود الأخروي.[3]

2-وفي معجم أكسفورد بيان معنى (**secular**) كما يلي:

أ- دنيوي، أو مادي، ليس دينيًّا ولا روحيًّا: مثل التربية اللادينيّة، الفن أو الموسيقى اللادينيّة، السلطة اللادينيّة، الحكومة المناقضة للكنيسة.

ب- الرأي الذي يقول: إنّه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية.[4]

---

(1) إكليروس clergy كلمة يونانية المقصود بها أصحاب الرتب الكهنوتية، من أساقفة، وكهنة، وشمامسة.

(2) علماني وعلمانية تأصيل معجمي، ص 134.

(3) المصدر السابق، ص 135.

(4) نقلا عن العلمانية، د. سفر الحوالي، ص 22.

وقد شاع مصطلح العلمانية في الغرب كما تقول دائرة المعارف البريطانية على (حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها.

ذلك أنّه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ(Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

وظل الاتجاه إلى الـ(Secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحيّة).[1]

فالعلماني إذن كما يقول الدكتور لويس روث: (هو الذي ينبذ الإيمان المطلق، ويعبر عنه بالنظرة العلمانية للإنسان الحديث؛ بمعنى الحياة في العالم وليس في دير أو في مجتمع ديني مع عدم الارتباط بالآراء الإكليركية واللاهوتية بحيث تكون أفكاره متعارضة تمامًا مع أفكار الراهب الناسك).[2] أو هو باختصار كما يقول بيتر جاي[3]: هو الملحد.[4]

من هذه التعريفات فالعلمانية:

1- ترفض الإيمان بالله، ثمّ ترفض مراسم العبادة على أيّة صورة كانت.

2- تبعد الدين عن التوجيه في مجالات الفن. التربية. الأخلاق.

3- تقيم حكومات على فلسفات تستمد أصولها من نظم الحياة.

4- تؤمن بالمادة المحسوسة وترفض الإيمان بما لا يدرك بواسطة حاسة من الحواس الخمس.

5- تحاول محاولات جادة لصرف الناس عن العمل للآخرة، وقصر اهتماماتهم بملذات الحياة الدنيا وحدها.[5]

---

(1) نقلا عن العلمانية، د. سفر الحوالي، ص 22.

(2) علماني وعلمانية تأصيل معجمي، ص 13.

(3) مؤرخ أمريكي يعمل أستاذًا بجامعة ييل في الولايات المتحدة الأمريكية.

(4) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري، ج1، ص 59.

(5) الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة، د. عبد العظيم المطعني ص 127.

المطلب الثالث: مفهوم العلمانية عند د. محمد أركون ود. نصر حامد أبو زيد

أولاً: مفهوم العلمانية عند د. محمد أركون

عمل الدكتور محمد أركون على كسر الثنائية الحادة بين العلمانية والدين؛ لأنّ الضرر الناجم عن هذه المعاداة للدين من قبل العلمانيّة، يعمل على العودة إلى الدين، وهذا ما لا يرضاه، ولا يمكن أن يغفل الطرف عنه، لأنّه بزعمه ردة عظيمة، يقول أركون: (هناك أولاً ما يمكن أن ندعوه بالعلمانويّة[1] والوضعيّة[2]؛ التي تَعْتَبِر من عصر النهضة أنّ الموقف الديني لا يتوافق أبدًا مع موقف العقل المستقل).[3]

وعن ردة الفعل التي تحدثها العلمانويّة ولا يرضاها أركون، يضرب مثالاً بالتجربة الكماليّة في تركيا فيقول: (وقد ذهبت بعيدًا في جرأتها، لكنّها، لم تكن في الواقع إلا "كاركاتيرًا" للعلمنة، رافقته بعض التطرفات كما حدث في فرنسا سابقًا، لكن الشعب التركي لم يستجب لهذه التطرفات التي دوخته، مما يفسر العودة الدينية العنيفة).[4]

---

(1) يضيف أركون المقطع "وية" ليفرق بين العلمانية والعلمانوية، فالعلمانوية متطرفة والعلمانية معتدلة.

(2) وضع أوجيست كونت مصطلح الفلسفة الوضيعة، وأراد بها تلك الفلسفة التي ترى أنّ الغاية من العلم يجب أن تُكَون المعرفة التي تستطيع التغلب على الأشياء، وعلى مجرى الحوادث في العالم، والعلم الصحيح في زعمه هو معرفة القوانيين الحقيقية للظواهر الطبيعيّة، ولا طريقة له إلا التجربة. ولا يمكن للعقل أن يصل إلى هذه الفكرة الوضعية في العلم إلا بعد أن يجتاز مرحلتين أخريين من مراحل التفكير وهما: مرحلة التفكير الأثولوجي، والتفكير الميتافيزيقي؛ فإنّ الثالوجيا {العلم الذي يبحث في الله وصفاته} والميتافيزيقا {ما وراء الطبيعة} ليس لهما أساس من العلم، ولهذا السبب لم يكن لهما أثر كبير في توجيه الأفعال الإنسانيّة الإرادية. (المدخل إلى الفلسفة، أزفلد كولبة، ص 288 نقلاً عن: الفلسفة الحديثة عرض ونقد، الدكتور أحمد رمضان، ص 481، مكتبة الإيمان المنصورة بدون).

(3) العلمنة والدين، د. محمد أركون، ص 72، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الثالثة 1996م.

(4) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، د. محمد أركون، ص 278، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الثانية 1996م.

فلم تكن تجربة أتاتورك[1] في تركيا، وبورقيبة[2] في تونس ناجحتين في فرض العلمانيّة، ولذا فهو يدعو إلى علمانيّة جديدة تحتوي الدين يقول أركون: (فأنا لا أدعو للتراجع عن فكرة العلمنة، بمعنى: فصل الكنيسة عن الدولة، وإنّما أدعو إلى مراجعتها، وإغنائها عن طريق إعادة التفكير بمسألة العامل الديني، والعامل الدنيوي بصفتهما بعدين لا يتجزءان من أبعاد الإنسان، وأنا أقول: إنّه توجد طريقة أخرى لمعالجة مسألة العلمنة في البلدان الإسلاميّة، وليست طريقة أتاتورك وبورقيبة هي الوحيدة، وربما لم تكن هي الناجحة والناجعة).[3]

---

(1) ولد مصطفى علي رضا في 19 مايو 1881م في مدينة سالونيك اليونانية، والتي كانت تابعة للدولة العثمانية وقتئذ، وحينما التحق بالمدرسة العسكرية أظهر نبوغًا دراسيًّا، دفع أحد أساتذته أن يطلق عليه اسم "كمال"، بينما اسم "أتاتورك" يعني أبو الأتراك، وقد أُطلق عليه أيضًا اسم الذئب الأغبر. كان كارهًا للإسلام وأهله يقول أرمسترونج: (ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنّه يرى وجوب اقتلاع الدين من تركيا) (الذئب الأغبر .. مصطفى كمال، الكابتن هـ. س أرمسترونج، ص195، دار الهلال يوليو 1925م)، وفي 3 مارس 1924م، ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية، عاث في الأرض فسادًا، فقد اضطهد المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل العشرات، وعلّق جثثهم على أعواد الشجر، وأغلق المساجد، ومنع الآذان والصلاة باللغة العربية، وأعاد مسجد أيا صوفيا كنيسة ومتحفًا، واستبدل بالشريعة الإسلامية قانونًا وضعيًّا، واتخذ الحروف اللاتينية بدلاً من العربية في كتابة الأبجدية التركية، وألغى تدريس الإسلام في المدارس والجامعات، ودعا إلى قوميّة طورانيّة عرقيّة متصلة الأواصر بالوثنيين السابقين للإسلام. توفي في 10 نوفمبر 1938م بعد معاناة شديدة مع أمراض عدة أصابته، (راجع سيرته في كتاب ذئب الأناضول، مصطفى الزين، طبعة قبرص الأولى1991م، والرجل الصنم، لضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الرابعة 1992م).

(2) ولد الحبيب بورقيبة 3 أغسطس 1903م وتوفي 6 أبريل 2000م، وهو أول رئيس للجمهورية التونسيّة، كان شديد العداء للإسلام ولنبيه ﷺ قال لأحد خواصه: إنّه سيعمل على تغيير عقليّة التونسيين الذين يتبعون رجلاً أميًّا لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه (يعني محمداﷺ) ويدَعون اتباع رجل تخرج في السوربون (يعني: نفسه، الحبيب بورقيبة قبحه الله) (انظر: التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص 121، 122، دار الشروق، الثالثة 2006م) وقد ذكر الدكتور القرضاوي نماذج من تطاولات بورقيبة على الإسلام فراجعه فهو مهم.

(3) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، د. محمد أركون، ص 274، ترجمة هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب (بدون).

وبهذه الطريقة يظهر أركون أنّه ليس ضد الإسلام بل هو معه، وهو المدافع عنه، يقول أركون: (إنّ ما أحاول عمله والقيام به ليس فقط عمل الاجتهاد أو التأويل بالنسبة للإسلام. فالموقع الذي أحتله وأحاول الانطلاق منه لا نستطيع تسميته، بسبب عدم توافر مفهوم جديد يستطيع أن يحل محل مفهوم العلمنة.

في الواقع أنّ هذا الموقع يتمثل بموقف محدد للإنسان أمام مشكلة المعرفة.

وهذا الموقف هو الآن في طور التبلور والتشكل من خلال علوم الإنسان والمجتمع.

فإلى هناك يقودني مساري بصفتي باحثًا وأستاذًا جامعيًّا. وبهذا المعنى فإنّ على الإسلام المعاصر أن يستعيد الصلة بماضيه المبدع، وبتراثه الفكري الخلاق).[1]

فالعلمانيّة المعتدلة في زعمه هي: التي تدرس الدين كظاهرة اجتماعيّة، ولذلك يدعو إلى دراسته من داخل العلمانيّة، فيجب دراسة الدين (ليس كعبادات وتبشير، وإنّما تاريخ الأديان كأنظمة ثقافيّة كبرى، أدت دورًا كبيرًا في تاريخ البشريّة، أمّا تعليم الأديان كعقائد إيمانيّة وتيولوجيّة[2] تبشيريّة فلا يمكن إعادتها، لأنّها تحدث الانقسام في صفوف المجتمع)[3]، ويقول: (هناك تعليم علماني للتيولوجيا، وتاريخ الأديان، والفكر الديني يقابل التعليم التقليدي، والإيماني العقائدي، وهذا أفضل تعريف للعلمنة).[4]

فالعلمانيّة عنده هي: دراسة الدين كظاهرة إجتماعيّة، وأفضل طريقة للتعامل معه هي احتواؤه، دون أن تتنازل عن شيء من مبادئها؛ يقول أركون: (إنّ الحداثة العقليّة، تحدث القطيعة مع اليقينيات الدوغمائيّة[5] للإيمان التقليدي، والمسلمات المتشنجة للنظام المغلق).[6]

---

(1) العلمنة والدين، أركون، ص36.

(2) أي إلهية فالتيولوجيا هي الإلهيات.

(3) المصدر السابق ص 275.

(4) المصدر السابق ص 291.

(5) الدوغما (بالإيطالية: Dogma) وتستعمل لوصف التشدد في الاعتقاد الديني، أو المبدأ الأيديولوجي، أو الموضوع المغلق الذي لا يقبل النقاش أو الشك من قبل معتقديه.

(6) العلمنة والدين ص 43.

ومن ثمّ فهو يعرف العلمانيّة بقوله: (أمّا أنا فأعرف العلمنة على الشكل التالي: إنّها الموقف الحر والمفتوح أمام مشكلة المعرفة، ولا شيء ينبغي أن يحول بين الإنسان وبين كشف المجاهيل الماديّة، أو الروحيّة للوجود، وهذه هي العلمنة الإيجابيّة في رأيي).[1]

ويقول: (فالعلمنة ينبغي أن تؤخذ كمصدر للحريّة الفكريّة، كفضاء تنشر فيه هذه الحريّة).[2]

ويلخص أركون عمل علمانيته، وتركيزها في مجابهة الدين بقوله: (العلمنة كما نفهمها، تتركز في مجابهة السلطات الدينيّة، التي تخنق حرية التفكير في الإنسان، ووسائل تحقيق هذه الحريّة، أنّها تتركز فقط في الإلحاح على حاجة الفهم والنقد).[3]

والخلاصة، أنّ العلمانية والعلمانوية بمعنى واحد، إلا أنّ الفرق بينهما في نظر أركون، هو في أسلوب التعامل مع الدين، فالعلمانويّة تصادميّة، أما العلمانيّة فهي مرنة، لكنّها لا تتخلى عن الثوابت، وإنّما تطوع الدين، والجدير بالذكر أنّ خطاب أركون موجه إلى العالم الإسلامي لا إلى العالم الغربي.

إنّ الجديد في علمانيّة أركون، هو في وضع تصور مادي للدين بحيث يجعله في موقف التطويع، لا موقف العداء الذي يعود بالمجتمعات إلى التمسك بالدين، إنّها علمانية شاملة في صورة جديدة أو ثوب جديد.

---

(1) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ص 292.

(2) الفكر الإسلامي قراءة علمية، د. محمد أركون ص 183، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الثانية 1996م.

(3) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، أركون، ص 294.

ثانيًا: مفهوم العلمانية عند د. نصر حامد أبو زيد

يرجع د. نصر حامد أبو زيد العلمانيّة، إلى العالم، والاهتمام به، وبالإنسان، فيقول: (والأصل الاشتقاقي للكلمة، هو من العالم وليس من العلم، إنّ الاهتمام بالعالم وبشؤونه، وبالإنسان بوصفه قلب العالم ومركزه؛ هو جوهر دعوة العلمانيّة).[1]

والعلمانيّة في تاريخها (ليست نمطًا من التفكير معاديًا للدين بل هي تعادي التأويل الكنسي للدين - تأويل رجال الدين -، وتناهض محاولة الكنيسة في فرض تأويلها من أجل هيمنتها وسيطرتها، إنّها نمط من التفكير يناهض "الشموليّة" الفكريّة، والإطلاقيّة العقليّة لرجال الدين على عقول البشر، حتى في شئون العلم والحياة الإجتماعيّة، العلمانيّة هي مناهضة حق امتلاك الحقيقة المطلقة دفاعًا عن النسبيّة، والتاريخيّة، والتعدديّة، وحق الاختلاف، بل وحق الخطأ، في ظل العلمانيّة ازدهرت الأديان، وتحرر أصحابها من الاضطهاد، والمصادرة).[2]

ويعرف العلمانيّة بأنّها: (ليست في جوهرها سوى التأويل الحقيقي للدين).[3]

وتعتمد العلمانيّة فيما يرى نصر أبو زيد على مبادئ يقول عنها: (وتعتمد العلمانيّة على مبادئ كليّة مهمة، فهي التي تحرر الإنسان من الاضطهاد الديني، من أهم مبادئ الفكر العلماني أنّه لا سلطان على العقل إلا العقل).[4]

فالمبدأ الأول الذي ذكره هو الحرية، ويؤكده بقوله: (إنّ العلمانيّة هي الحريّة الحقيقية لحريّة الدين، والعقيدة والفكر، وحريّة الإبداع، وهي الحماية الحقة للمجتمع المدني، ولا قيام له بدونها).[5]

---

(1) التفكير في زمن التكفير، د. نصر حامد أبو زيد، ص 87، مكتبة مدبولي، الثانية 1995م.
(2) المصدر السابق، ص 81، 82.
(3) المصدر السابق، ص75.
(4) المصدر السابق، ص 92.
(5) المصدر السابق، ص 91.

والمبدأ الثاني: هو أنّه لا سلطان على العقل إلا العقل، فهو لا يبين لنا، كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: (نوعيّة هذا العقل الذي سيصبح السلطان الجديد، أهو العقل الماديّ والأداتيّ الذي يحدد فضاؤه بالفضاء الطبيعيّ الماديّ، أم هو العقل القادر على تجاوز عالم الطبيعة؟ من الواضح أنّ العقل الذي يدعوا إليه نصر أبو زيد، هو هذا العقل الماديّ الذي يرد كلّ شيء إلى عالم المادة، وقوانين الحركة والتاريخ).[1]

والخلاصة، أنّ علمانيّة نصر حامد أبو زيد هي تفسير الدين على أساس ماديّ، وهذا هو الجانب المشترك بينه وبين أركون؛ فكلاهما يفسر الدين تبعا للقاعدتين اللتين ذكرهما نصر حامد أبو زيد، الحرية، ولا سلطان على العقل إلا العقل.

وبناء عليه يمكن أن نقول: إنّ علمانية أركون، ونصر، علمانية شاملة تلبس ثوبًا جديدًا هو الإسلامية، فيحاولان جهدهما أسلمة العلمانيّة لتجاوز العداء بين الإسلام والعلمانية، ولكنّه بالطبع لصالح العلمانية.

(1) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج1، ص 84.